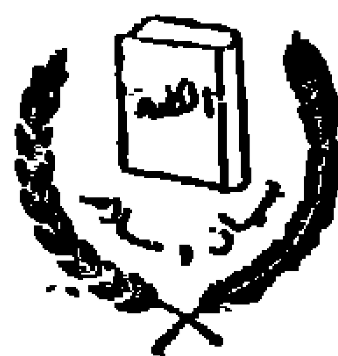
السيد سابق

عناصر القوة في الإسلام



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين

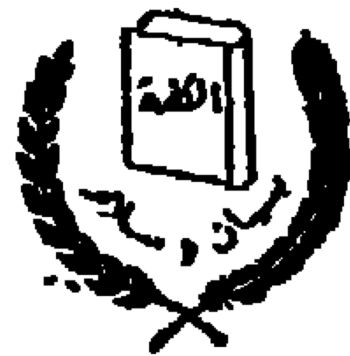
اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمـــــــد ديـــــــاب

جراح بالمستشفى الملكى المصرى

السيد سابق

عناصر القوة فى الإسلام



الناشر..
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين

[الطبعة الأولى]

القاهرة { رمضان ١٣٨٢ هـ
فبراير ١٩٦٣ م

مطابع دار الكتاب العربي بمصر (محمد حلمي المنياوي)

مقدمة

دور الأمة الإسلامية دور إمامة وزعامة ، وقد أمدها الإسلام بالعناصر التى تؤهلها لهذا المنصب الخطير .

ومن هذه العناصر تتألف القوة الحقيقية التى تصل بالأمة إلى غاياتها ، من العزة والمنعة ، والمجد والسؤدد ، والسيادة والقيادة ، والتمكين فى الأرض .

وليست هذه العناصر مقصورة على جانب دون جانب ، وإنما تتناول جوانب الحياة جميعاً فهى تتمثل :

* فى الإيمان بالله إيماناً يحرر الضمير والوجدان .

* وفى الاستعصام بالحق استعصاماً يزهق أمامه الباطل ويندحر .

* وفى معرفة الضعف النفسى ، والتطهر منه ، حتى تأخذ النفس طريقها إلى العزة ، والسمو الروحى .

* وفى العلم المقوم لشخصية الإنسان ، والكاشف له عن حقائق الوجود المادى ، وما وراء هذا الوجود من عالم ما وراء الطبيعة .

* وفى الثروة ، وتعمير الأرض ، واستثمار قوى الكون ، والانتفاع بما فى الطبيعة ، من بركات الله وخيراته ، وتوزيعها على أفراد الأسرة الإنسانية بالكفاية والعدل .

* وفى إقامة المجتمع على أساس من الحرية ، والعدالة ، والمساواة ، والتشريع السمح ، والعمل الجاد ، والمعاشرة الحسنة ، والحكم الصالح ، الذى تكون فيه السيادة للأمة .

* وفى السلام العام القائم على احترام الإنسان وكفالة حقوقه .
* وفى احترام العهود والحفاظ على المواثيق .
* وفى التضحية النبيلة والاستشهاد فى سبيل الحق ، ومن أجل الحياة الحرة الكريمة .

هذه هى عناصر القوة فى الإسلام ، وهى ليست مثل القوة التى اصطلح الناس عليها ؛ فهى قوة فى العقيدة ، وقوة فى الخلق ، وقوة فى العلم ، وقوة فى المال ، وقوة فى التماسك الاجتماعى ، وقوة فى التنظيم السلمى ، وقوة فى الاستعداد الحربى .

وسيادة الأمة وقيادتها منوطة بتوفر هذه القوى مجتمعة .

وقد كانت هذه القوى هى العامل الأساسى فى نجاح هذه الأمة فى أول دور من أدوار حياتها التاريخية ؛ فما كادت تجتمع لها هذه العناصر حتى آل إليها ميراث الأرض ، ووضع فى يدها قياد الأمم ، ووكل إليها إخراج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده . ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها .

وباجتماع هذه العناصر أصبحت الأمة رفيعة البنيان ، عظيمة السلطان ، ثابتة الأركان ، باذخة الذرى . وتم لها وعد الله الذى لا يتخلف .

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ . وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا »[1] .

---

(١) سورة النور آية ٥٥

وما زالت كذلك حتى غيرت ما بنفسها . وأخلفت ما عاهدت الله عليه . فغير الله ما بها؛ وطبق عليها سنته في الاجتماع البشرى .

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » [١] .

وكان العامل فى هـذا التغيير — فى نظر المصلحين — هو التنازع على الحكم والسلطان ، والتعصب للجنس والنسب والاختلاف فى أصول الدين وفروعه ، وإرجاف المرجفين ، ودسائس المستعمرين والابتعاد عن روح الإسلام والتعلق بالشكل دون الحقيقة والجوهر .

وقد أثرت هذه العوامل مجتمعة فى كيان الأمة وحيويتها ، وأضعفت من دورها الحضارى العظيم .

فـكان أن أصيبت بضعف فى العقيدة ، وانحطاط فى الخلق ، وتخلف فى العلم ، وفقر فى الثروة ، وتفكك فى الروابط ، وفساد فى الحـكم ، وفوضى فى كل شأن مما عرضها للغزو الأجنبى ، والاستعمار الخارجى .

وكانت وطأة هذا الاستعمار شديدة وقاسية .

لقد شككها فى دينها . وغير من أخلاقها . وشوه حضارتها . وأعطى لنفسه القوامة على حكمها وتشريعها ، وعلى علومها وفنونها ؛ وعلى ثروتها واقتصادها .

وتمـكن من السيطرة على جيشها وقوتها العسكرية . ونجح فى تمزيق الـكيان الإسلامى إلى طوائف ، وشيع ، وأحزاب ، وفرق .

---

(١) سورة الأنفال آية ٥٣ .

ولم يدع فرصة لتحطيم مقومات هذه الأمة ؛ ومحاولة إفناء شخصيتها إلا وسعى إليها فى مكر وخبث ، وتدبير وإحكام .

واستطاع بمحاولاته الماكرة أن يحقق الكثير مما يستهدفه إلا أنه عجز عن القضاء على روح الأمة ، وإفقادها معنوياتها .

وعلى أثر هذه الضربات الموجعة التى أنزلها بها الاستعمار الكافر .

بدأت الأمة تستيقظ من نومها وتسترد وعيها ، وتتحسس طريقها محاولة انتزاع مكانتها ، فى قوة ، وعزم ، واقتدار .

وهى وإن لم تبلغ الغاية بعد ، إلا أنها مصممة على بلوغها مهما بذلت من تضحيات . ومتى صح العزم ... وضح السبيل .

ومن الواجب علينا ونحن فى هذه المرحلة الحاسمة أن نبدأ بتغيير جوهرى فى نفوسنا وفى أخلاقنا ، وأن يكون ذلك التغيير عاماً وشاملا بالنسبة للعامة والخاصة ، ويكون على أساس مدروس ، وخطة محكمة ؛ لكى نتقى أسباب الانحلال والضعف من جهة ، ونأخذ بأسباب القوة والعزة من جهة أخرى .

وأسباب القوة ليست فى فوضى الأخلاق ، ولا فى التحلل من الآداب ؛ ولا فى التشكيك فى المثل والقيم ، ولا فى تقليد الشرق أو الغرب ، ولا فى استيراد المبادىء من هنا أو هناك .

وإنما هى فى الأصول الخالدة ، والمبادىء الكريمة التى جاء بها الإسلام .

وفى خلال هذه المعركة الدائرة رحاها بين الطليعة التحررية من أبناء هذه الأمة وبين الاستعمار الصليبى الأسود ، نرى من حق أمتنا علينا أن نذكر بالقوة الحقيقية لنهضتنا ، والعوامل التى تربط حاضرنا المتوثب بماضينا المجيد .

وقد عرضنا فى هذا الكتاب لهذه العوامل ، معتمدين على نصوص الإسلام

نفسها — كما هو منهجنا فى عرض قضايا الإسـلام — لنتبين وجهة الإسلام على حقيقتها ، ولتتضح الحركة الإسلامية ، وأنها حركة تقدمية تستهدف تغيير أوضاع الحياة ، وإرساءها على قواعد راسخة لا تبلى جدتها : ولا تهن قوتها . وأنها سبقت جميع المبادىء التى اهتدت الإنسانية إلى بعضها — فضلا عن أنها أسمى منها وأكمل .

صحيح أن الاسلام لم يذكر المصطلحات الحديثة ، ولا هذه الألفاظ التى يدندن بها كثير من المعاصرين .

ولـكن هل قيمة الشىء فى تسميته ، أو أن له قيمة ذاتية مستقلة ... ؟

إن قيمة الشىء فى حقيقته ذاتها ، وفى مدى نفعه ، وأثره الطيب فى حياة الناس ، إن الأسماء لا تغير من الواقع شيئاً ، إنها لا تجعل الحقيقة كالحة إذا كانت وضيئة ، ولا تغض من قيمتها إذا كانت ذات قيمة .

إن الإسلام قوة فى ذاته ، ولـكن المنتسبين إليه هم الذين تسرب الضعف إلى نفوسهم بانحرافهم عنه ، فشوهوا جماله ، وحجبوا نوره ، وكانوا حجة لأعدائه ، ودليلا فى يد خصومه : وسلاحاً يشهرونه فى وجوه دعاة الإسـلام ، وخسر العالم بذلك هداية الله ، ورحمته المهداة إلى عباده .

وقد آن للمسلمين أن يفقهوا الإسلام ، ويعوا ما فيه ، ويتمثلوه فى كل ناحيـة ويجسدوه بالعلم والعمل ، حتى ترتفع أعلامه ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (١) .

السيد سابق

---

(١) سورة الروم آية ٦ .

قوة العقيدة

الإيمان بالله

الوجود الإلهى :

١ — كل ما فى الكون شاهد على وجود الله .. وعناصر الوجود ، ومواد الطبيعة تؤكد أن لها خالقاً ومدبراً .

وكتاب الله الكريم كثيراً ما يلفت الأنظار ، ويوجه الأفكار إلى هذه الحقيقة :

« إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * »[1] .

٢ — والنفس الإنسانية مغروس فيها الشعور بوجود الله .. وهو شعور فطرى فطر الله الناس عليه ، وعبر عنه العلماء بالغريزة الدينية .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * »[2] .

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ

---

(١) سورة الجاثية من آية ٣ — ٥ (٢) سورة الروم الآية ٣٠

عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * »(١) .

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * »(٢) .

وفى الحديث الصحيح : [كل مولود يولد على الفطرة] .

وهذا الشعور النفسى يستيقظ عند وجود مثير يبعث على اليقظة ، من ألم ينزل أو ضر يحيط .

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ »(٣) .

٣ — والوجود الإلهى كما هو حقيقة تتجلى فى الكون ، وفى الطبيعة ، وفى الأشياء ، وفى النفس — فهو قريب من الإنسان ، بل أقرب إليه من نفسه . يسمع دعاءه ، ويلبى نداءه ، ويحقق رجاءه .

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * »(٤) .

---

(١) سورة الاعراف من آية ١٧٢ — ١٧٤ (٢) سورة الطور من آية ٣٥ — ٣٦
(٣) سورة يونس الآية ١٢ (٤) سورة البقرة الآية ١٨٦

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * »(١) .

حقيقة الذات الإلهيــة :

وحقيقة الذات الإلهيــة لا تعرف ، ولا يدرك كنهها ؛ لأنها لا تحيط بها الفــكرة . والإنسان لم يعط وسائل إدراكها بعد .

« لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَــارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * »(٢) .

« وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي وَلَــكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ . فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ؛ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * »(٣) .

وعن ابن عباس : أن قوما تفــكروا فى الله عز وجل . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : [تفــكروا فى خلق الله . ولا تتفــكروا فى الله فإنكم لن تقدروا قدره](٤) .

الطريق إلى المعرفة :

والطريق إلى معرفة الله هى التفــكر فى خلقه كما جاء فى الحديث من جهة ، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العليا من جهة أخرى .

(١) سورة ق الآية ١٦ . (٢) سورة الأنعام الآية ١٠٣ (٣) سورة الأعراف الآية ١٤٣ .
(٤) قال العراقى . رواه أبو نعيم فى الحلية بإسناد ضعيف . ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه . ورواه أبو الشيخ كذلك . وهو على كل حال صحيح المعنى .

فالأسماء والصفات هى الوسائل التى تعرّف الله بها إلى خلقه ، وهى النوافذ التى يطل منها القلب على الله مباشرة .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : [لله تسعة وتسعون اسماً : مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر] رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وزاد :

[هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . الملك . القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن . العزيز . الجبار . المتكبر . الخالق . البارىء . المصور . الغفار . القهار . الوهاب . الرزاق . الفتاح . العليم . القابض . الباسط . الخافض . الرافع . المعز . المذل . السميع . البصير . الحكم . العدل . اللطيف . الخبير . الحليم . العظيم . الغفور . الشكور . العلى . الكبير . الحفيظ . المقيت . الحسيب . الجليل . الكريم . الرقيب . المجيب . الواسع . الحكيم . الودود . المجيد . الباعث . الشهيد . الحق . الوكيل . القوى . المتين . الولى . الحميد . المحصى . المبدىء . المعيد . المحيى . المميت . الحى . القيوم . الواجد . الماجد . الواحد . الصمد . القادر . المقتدر . المقدم . المؤخر . الأول . الآخر . الظاهر . الباطن . الوالى . المتعالى . البر . التواب . المنتقم . العفو . الرءوف . مالك الملك . ذو الجلال والاكرام . المقسط . الجامع . الغنى . المغنى . المانع . الضار . النافع . النور . الهادى . البديع . الباقى . الوارث . الرشيد . الصبور — جل جلاله] .

من ثمار المعرفة بالله :

وإذا عرف الإنسان ربه عن طريق العقل والقلب — أثمرت له هذه المعرفة ثماراً يانعة ، وتركت فى نفسه آثاراً طيبة ، نجمل بعضها فيما يلى :

(ا) من ثمار الإيمان بالله والمعرفة به تحرر النفس من سيطرة الغير ، وذلك أن الإيمان يقتضى الإقرار بأن الله هو المحيي المميت ، الخافض ، الرافع ، الضار ، النافع ، المعطى ، المانع .

وأنه ليس لبشر مهما علا قدره ، وعظم شأنه أن يسوق إلى الإنسان ما أراد الله منعه ، أو أن يمنع عنه ما أراد الله أن يعطيه إياه ، وما البشر إلا خلق مثله .

« وَلاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا * »(١) .

وإذا تحررت النفس من سيطرة الغير ، أخذت طريقها إلى الكمال دون أن يعوقها عائق ، أو يصدها عن غايتها صاد .

وقد جاءت توجيهات القرآن راسمة للانسان هذا المنهج ، وموضحة له هذا الطريق .

« قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ . أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ * »(٢) .

ويقول سبحانه : « وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * »(٣) .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع رفعة قدره ، وعظم منزلته عند الله لا يخرج عن هذه القاعدة . ولا يشذ عنها . فالبشر جميعاً من طينة واحدة . وهم متساوون فى القيمة الانسانية ، ويجرى عليهم حكم واحد .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٣ (٢) سورة الزمر الآية ٣٨ (٣) سورة يونس الآية ١٠٧

« قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ . وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * »(١) .

إن الذى عوق الانسانية عن النهوض ، وحال بينها وبين رقيها ، هو الخضوع للاستبداد ، سواء أكان هذا الاستبداد استبداد الحكام ، والرؤساء ، أم استبدادا كهنوتيا لرجال الدين .

وبتقرير الإسلام لهذه الحقيقة قضى على هذا الأسر ، وأطلق حرية الإنسان من سيطرة هؤلاء المستبدين ، التى لازمته قرونا طوالا .

(ب) والإيمان يبعث فى النفس روح الشجاعة والإقدام . واحتقار الموت والرغبة فى الاستشهاد من أجل الحق .

إذ أن الإيمان يوحى بأن واهب العمر هو الله . وأنه لا ينقص بالإقدام ، ولا يزيد بالإحجام ، فكم من إنسان يموت وهو على فراشه الوثير ، وكم من إنسان ينجو وهو يخوض غمرات المعارك والحروب . ! !

« وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً * »(٢) .

« وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ . قُلْ : إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا . قُلْ : لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٨ . (٢) سورة آل عمران آية ١٤٥ .

لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ ، وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * »[1] .

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ * »[2] .

(ج) والإيمان يقتضى الاعتقاد بأن الله هو الرزاق ؛ وأن الرزق لا يسوقه جرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * »[3] .

« وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * »[4] .

« اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * »[5] .

وإذا سيطرت هذه العقيدة على النفس تخلص الإنسان من رذيلة البخل والحرص والشره والطمع ، واتصف بفضيلة الجود والبذل والسخاء والأنفة والعفة ، وكان إنساناً مأمول الخير ، مأمون الشر .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٤
(٢) سورة النساء الآية ٧٨ .
(٣) سورة هود الآية ٦
(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٠ .
(٥) سورة العنكبوت الآية ٦٢ .

(د) والطمأنينة أثر من آثار الإيمان : أى طمأنينة القلب، وسكينة النفس :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * »(١) .

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ »(٢) .

وإذا اطمأن القلب ، وسكنت النفس شعر الإنسان ببرد الراحة ، وحلاوة اليقين ، واحتمل الأهوال بشجاعة ، وثبت إزاء الخطوب مهما اشتدت ، ورأى أن يد الله ممدودة إليه ، وأنه القادر على فتح الأبواب المغلقة ، فلا يتسرب إليه الجزع ، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا .

« اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * »(٣) .

(هـ) والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية ، ويربطه بمثل أعلى ، وهو الله مصدر الخير ، والبر ، والكمال .

وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات ، ويرتفع عن الشهوات ، ويستكبر على لذائذ الدنيا ، ويرى أن الخير والسعادة فى النزاهة والشرف ، وتحقيق القيم الصالحة ، ومن ثم يتجه المرء اتجاهاً تلقائياً لخير نفسه ، ولخير أمته ، ولخير الناس جميعاً .

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٨ .

(٢) سورة الفتح الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

وهـذا هو السر فى اقتران العمل الصالح بجميع شعبه ، وفروعه بالإيمان ؛ إذ أنه الأصل الذى تصدر عنه وتتفرع منه .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ »[١]

« وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »[٢] .

« وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »[٣] .

وإذا اهتدى القلب فأى شىء من الخير يفوته ؟ !

(و) والحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين فى الدنيا قبل الآخرة .

وتتمثل هذه الحياة فى ولاية الله للمؤمن ، وهدايته له ، ونصره على أعدائه ، وحفظه مما يُبَيَّتُ له ، وأخذه بيده كلما عثر ، أو زلت به قدم . فضلا عما يفيضه عليه من متاع مادى ، يكون عوناً له على قطع مرحلة الحياة فى يسر .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * »[٤] .

« وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * »[٥] .

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . وَلَيُمَكِّنَنَّ

(١) سورة يونس الآية ٩
(٢) سورة الحج الآية ٥٤ .
(٣) سورة التغابن الآية ١١
(٤) سورة النحل الآية ٩٧ .
(٥) سورة النحل الآية ٣٠ .

لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً »[1] .

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا . ويوم يقوم الأشهاد * »[2] .

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »[3] .

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين * »[4] .

وقد انتهى العلم إلى هذه الحقائق الإيمانية ، ولا يتسع المجال لإثبات شهادات كبار العلماء ، وتسجيل ما شاهدوه .

ونكتفى هنا بتسجيل ما نشر بجريدة الجمهورية يوم السبت ١٩٦٢/١١/٢٩ قالت الصحيفة ، تحت عنوان [العلماء يلجأون إلى الدين لعلاج مرضى الأمراض العقلية] :

عزاء وسلوان لأولئك الذين تشبثوا بدينهم ، ولم يتزعزع إيمانهم فى أحلك لحظات المدنية وأتعسها . . أقصد تلك اللحظات التى يتشدق فيها دعاة النظريات العتيدة . وفى مقدمتها نظرية النشوء والارتقاء « لداروين » ، ويتشدقون فيها بأن الدين بدعة ، وبأن الإنسان يقف وحده فى هذا الكون ، كما زعم « جوليان هاكسلى » جد الكاتب والفيلسوف البريطانى الكبير « الدوس هاكسلى » .

(١) سورة النور الآية ٥٥ .
(٢) سورة غافر الآية ٥١ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٩٦
(٤) سورة يونس الآية ٩٨ .

إن علماء الأمراض العقلية لايجدون اليوم سلاحاً أمضى وأبعد فاعلية لعلاج مرضاهم من الدين . . الإيمان بالله . . والتطلع إلى رحمة السماء .. والتشبث بالرعاية الإلهية .. والالتجاء إلى قوة الخالق الهائلة عندما يتضح عجز كل قوة سواه . ! !

لقد بدأت التجربة في مستشفى Ma Heawar بولاية نيويورك ، وهو مستشفى خاص بمرتكبي الجرائم من المصابين بالأمراض العقلية .

بدأت التجربة بإدخال الدين كوسيلة جديدة للعلاج بجانب الصدمات الكهربائية لخلايا المخ ، والعقاقير المسكنة ، والمهدئة للأعصاب .

وكانت النتيجة رائعة .. إن أولئك الذين تعذر شفاؤهم ، بل فقد الأمل فيه — انتقلوا من عالم المجانين إلى عالم العقلاء . . أولئك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم وهم مسلوبو الإرادة .. باتوا يسيطرون على إرادتهم وتفكيرهم وتصرفاتهم ، ويذرفون الدمع ندماً ، وكلهم أمل فى رحمة السماء ، ومغفرة الله .

واستسلم العلماء ، ورفعوا أيديهم إلى السماء ، يعترفون بضعفهم ، ويعلنون للدنيا أن العلم يدعو إلى الإيمان ، وليس أبداً إلى الإلحاد .

وأنت طبعاً لست فى حاجة لأكثر من الإلمام بالقراءة ، وحتى إذا كان قد فاتك قطار التعليم ، فأمامك بيوت الله ، وفيها السلوى .. وفيها العزاء . ! !

الحق ...

يتمثل الحق فى العقيدة الصحيحة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، والخلق الكريم ومن ثم فقد أطلق على الإسلام لفظ الحق .

« هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً * »(1) .

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً * »(2) .

« وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً * »(3) .

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ »(4) .

الحق رسالة الرسل جميعاً :

والإسلام الحق هو دعوة الأنبياء جميعاً . وما رسالة محمد — صلوات الله وسلامه عليه — إلا إتمام لهذه الدعوة ، وامتداد لها .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(5) .

---

(1) سورة الفتح آية ٢٨ (2) سورة الأسراء آية ٨١

(3) سورة الاسراء آية ١٠٥ (4) سبأ آية ٦ . (5) سورة الشورى آية ١٣

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ . وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ . وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * »[1] .

قال — صلى الله عليه وسلم — :

[مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها ينظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة . فأنا موضع اللبنة . خُتم بى الأنبياء] .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول فى قيام الليل :

« اللهم لك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت » .

الصراع بين الحق والباطل :

والصراع بين الحق ، والباطل قديم منذ عرف فى الدنيا حق وباطل .

ودائماً تكون الغلبة فى النهاية للحق ؛ لأنه الثابت النافع . كما تكون الهزيمة للباطل ؛ لأنه هو الزهوق الضار .

(١) سورة البقرة آية ٢١٣

وهذه هى سنة الله التى أبان عنها فى كتابه :

« قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * » .

« قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * »(١) .

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ * »(٢) .

« وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * »(٣)

وحتى تتجلى هذه الحقيقة فى الأذهان ، وتأخذ طريقها إلى الأفهام ضرب الله المثل للحق والباطل بالماء والحديد ، والزبد والخبث .

فمثل الحق مثل الماء والحديد فى بقائهما ونفعهما .

ومثل الباطل مثل الزبد الذى يعلو الماء ، والخبث الذى يعلو الحديد ، فإنه لا بقاء لهما ، ولا منفعة فيهما .

« أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * »(٤) .

سنن الله فى إقامة الحق :

ومن سنن الله ألا يقوم الحق وحده ، وإنما ينهض بالرجال الكبار الذين لهم مزايا وخصائص ...

---

(١) سورة سبأ آية ٤٨ ، ٤٩ (٢) سورة الانبياء اية ١٨

(٣) سورة الإسراء آية ٨١ (٤) سورة الرعد آية ١٧

١ — من هذه المزايا : الثبات عليه ، والاعتصام به . . ، فما شرفت النفس بمثل معرفتها بالحق ، واستمسا كها به . . ، فهو الذى يعلى قدرها ، ويرفع شأنها . . يقول الله — سبحانه — :

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »(١) .

أى : أن الوحى الذى نزله الله على نبيه شرف له ، ولمن استمسك به . . ، وهذا كقوله — سبحانه — :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * »(٢) .

وقد أثنى الله على المستمسكين بالحق الذين يعتصمون بعروته ، ولا يخالفون عن أمره ، وأخبر أنه لا يضيع شيئاً من أجورهم ، فقال :

« وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * »(٣) .

٢ — ومنها : أن يكون لهم من الشجاعة ما يحملهم على الجهر به ، والإعلان عنه دون خوف أو جبن ؛ لأنهم منتدبون من قبل الله لإشاعة هذا النور ، والإذاعة به فى العالمين .

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * »(٤) .

---

(١) سورة الزخرف آية ٤٤
(٢) سورة الأنبياء آية ١٠ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٧٠
(٤) سورة آل عمران آية ٤٠ .

والجهر بالحق من أعظم الفضائل ؛ لأنه لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق ، فما دام الدعاة إلى الله يجهرون بالحق ، و يدعون إليه، و يعملون على نشره ، فسوف يتوارى الباطل ، و ينكمش . كما تتوارى الخفافيش فى ضوء النهار .

ولهذا كان الجهر بالحق واجباً من الواجبات الدينية ، والاجتماعية ، وكانت الآيات التى تتحدث عنه أكثر من الآيات التى تتحدث عن بعض أركان الإسلام .

ولا يتصور أن تنهض جماعة ، أو ترقى أمة إلا إذا وجد فيها الدعاة الذين ينادون بالحق ، ويصرحون به .

ويوم تفقد الأمة هؤلاء يكون ذلك إيذاناً بغروب شمسها ، وتنكيس أعلامها .

يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[إذا هابت أمتى أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُودِّعَ منهم] .

ودعاة الحق من واجبهم ألا يخشوا إلا الله ، وألا يخافوا أحداً سواه ؛ لأن الجهر بالحق لا ينقص رزقا ، ولا يقدم أجلا ؛ فإن الآجال بيد الله ، والأرزاق فى قبضته . يقول الله تعالى — :

« الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً * »(١) .

ويقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ * يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ »(٢) .

(١) سورة الأحزاب آية ٣٩ (٢) سورة المائدة آية ٥٤

وحين أمر موسى بتبليغ فرعون دعوة الله اعتراه الضعف البشرى الذى يعرض لكل إنسان أمام الطغاة ، والجبابرة[1] فقال :

« إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * » — فيجيبه الله بقوله : « لاَ تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * »[2] .

ومن كان الله معه لا يضعف ، ولا يهزم لأنه يعطيه من قوته ، و يمده بالشجاعة التى يتضاءل أمامها كل طاغية جبار .

وكذلك صنع شيخ الأنبياء عندما أعلن فى الوثنيين دعوة التوحيد دون مبالاة — وهو وحيد فريد — لا يجد من ينصره ، أو يشد أزره : حتى أن والده وقف له بالمرصاد محاربا دعوته ، عاقا بنوته . . ولكن إبراهيم يسير فى طريقه لا يلوى على شىء ، و يعلن فى الناس دعوته متحدياً كل من يتصدى له قائلا :

« إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِى وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * »[3] .

---

(١) سورة طه آية ٤٥ (٢) سورة طه آية ٤٦ (٣) سورة الأنعام آية ٨٠ — ٨٢

ومحمد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يُخَوَّفُ هو وأصحابه فى الله فما يخافون ، بل لا يزيدهم ذلك التخويف إلا إيماناً إلى إيمانهم ، و يقيناً إلى يقينهم .

يقول الله — تبارك وتعالى — : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * »(١) .

و يثبتون على مبدئهم أمام العواصف الهوج :

« وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ : فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * »(٢) .

٣ — واحتمال تبعات الحق مما يعمق جذوره ، و يمكن له .

وهذه التبعات تقتضى الصبر ، واحتمال الألم ، واستعذاب العذاب ، كما تقتضى التضحية بالنفس ، والمال ، والجهد ، والوقت ، والعرق ، والدموع .

«أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ، وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ *

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣ — ١٧٥

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٢ ، ٢٣

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * »(١) .

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * »(٢) .

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ * »(٣) .

« حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * »(٤) .

نماذج حية :

هذه هى صفات رجال الحق ، وسمات أصحاب الرسالة السامية فى كل عصر ، ومصر ، وفى كل زمان ، ومكان . .

فبعرفان الحق ، والاعتصام به ، ورفع رايته ، واحتمال تبعاته — انتصر و بلغ مداه .

والتاريخ سجل حافل ببطولة هؤلاء الأبطال الذين رفعوا راية الحق ، ونصبوا ألويته ، وأقاموا أعلامه خفاقة فى العالمين .

وقد عرض الله فى كتابه نماذج كثيرة لهؤلاء الأبرار . مثل نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم — الصلاة والسلام — .

(١) سورة العنكبوت آية ٢ ، ٣ (٢) سورة آل عمران آية ١٤٢
(٣) سورة البقرة آية ٢١٤ (٤) سورة يوسف آية ١١٠

« وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * »(1) .

كما عرض نماذج لغير أنبياء الله ، ورسله ، لتكون أعلاماً هادية ، وقدوة حسنة . نترسم خطاها ، ونسير على هداها .

فمن ذلك : ما ذكره القرآن ؛ ليكون نموذجاً أمام أنظارنا — قصة أهل الكهف .

« إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * »(2) .

زادهم هدى ، وبصيرة نفاذة .

هؤلاء الفتية فروا بدينهم من مجتمعهم الذى يعيشون فيه ؛ لأنه مجتمع وثنى منحط . لا يصلح لنفس كبيرة يمكن أن تستمد منه ، وتنتفع به .

فهؤلاء آثروا أن يهجروا هذا المجتمع ، وأن يفروا منه إلى الله — عز وجل — فأووا إلى الكهف ، وانتهوا إلى غار بعيد فى الجبل ، واعتزلوا قومهم ، وما يعبدون من دون الله . فراراً بدينهم ، وإيمانهم ، ومثلهم ، فهل تخلى الله عنهم ؟

لا : لننظر إليهم وهم فى الكهف :

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ

---

(1) سورة آل عمران آية ١٤٦ ، ١٤٧ .
(2) سورة الكهف آية ١٣ .

وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ »[1] * .

هؤلاء الذين ارتفعوا بإيمانهم ، و إنسانيتهم ، ورفضوا أن يعيشوا فى هذا المجتمع الكافر . نرى أن الله لم يتخل عنهم حينما أووا إلى كهفهم ، فكانت الشمس إذا طلعت تميل عنهم حتى لا تؤذيهم ، وإذا غربت مالت عنهم كذلك . . ، فالله — سبحانه — كان يرعاهم غاية الرعاية — وهم فى هـذا المأوى الموحش :

« وتحسبهم » وهم فى الغار « أَيْقَاظاً وهم رقود * »[2] .

وكان الله — وحده — يقلبهم عن جنوبهم مرة بعد مرة . حتى لا تأكل الأرض أبدانهم .

« وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً * »[3]

فهم فى الغار يحملون الإيمان ، والنفوس الكبيرة ، وكان الله يحميهم ويتولاهم ، ولبثوا فى كهفهم على هذه الحال

« ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً * »[4]

ثلاث مائة عام وتسعة أعوام . بعد هذا الوقت الطويل بعثهم الله وأحياهم فوجدوا الدنيا غير الدنيا ، والناس غير الناس . . إيماناً بعد كفر ، وتوحيداً بعد

(١) سورة الكهف آية ١٧
(٢) سورة الكهف آية ١٨
(٣) سورة الكهف آية ١٨
(٤) سورة الكهف آية ٢٥

وثنية . لقد ذهبت كلمة الكفر وحاملوها ، وبقيت كلمة الله ، كلمة الحق الخالدة !! .

« وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ »[1] .

ظنوا أنهم لبثوا يوما ، أو جزءاً من يوم . . وبعد التساؤل ، والمحاورة قالوا لا نبحث فى هذه القضية . ليذهب واحد منا . لينطلق إلى السوق ؛ ليحضر لنا الطعام الطيب الزكى .

« فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً »[2] * .

وظنوا أن الكفر هو الكفر .

« إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً * وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً »[3] .

فجاء هؤلاء الذين آمنوا من بعد وقالوا : « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً » . فأقيم المسجد على هذا المكان الذى أوى إليه أهل الكهف .

والمسلم العاقل الذى يتخذ من هذا كله عظة وعبرة ، ويجعل منها زاداً ليقوى

(١) سورة الكهف آية ١٩ (٢) سورة الكهف آية ١٩
(٣) سورة الكهف آية ٢٠ ، ٢١

على أعباء الجهاد الشاق ، و يعلم بأن الله معه ما جاهد فى الحق . سواء وجد فى غار مظلم ، أو فى مكان مجهول ؛ لأن القلب مادام يحمل إيماناً بالله فليس يحجبه شىء .

« وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ * »[1] .

و بهذا الحق ، والثبات عليه ، والدعوة له ، واحتمال تبعاته — انتصر المسلمون فى بدر ، وفى الخندق ، وفى الحديبية ، وفى الفتح ، وفى جميع المعارك التى خاضوها ضد الفرس ، والروم ، وضد الصليبيين ، والتتار ، وضد الاستعمار .

ولم يكن ذلك الانتصار إلا مظهراً من مظاهر الشجاعة ، والإيمان بالله ، والثقة به ، والاستمساك بالحق ، والإصرار عليه .

و إذا كان الحق هو الأمر الثابت — فإن الإسلام هو أثبت على الزمن ، وأخلد على الدهر ، وأبقى على الأيام .

فجذوره تمتد امتداداً فى الماضى البعيد ، وستبقى ظلاله تمد الدنيا بالروح والريحان . حتى يرث الله الأرض ، ومن عليها .

---

(١) سورة النور آية ٤٠

قوة الخلق ...

* الضعف الإنسانى .
* تقويم الخلق .
* التربية الدينية .
* عزة النفس .
* الارتقاء الروحى .

الضعف الإنسانى

الانسان جسد وروح :

الانسان مكون من جسد وروح .

فبالجسد يتحرك ، ويحس .

وبالروح يدرك ، ويعى ، ويفكر ، ويعلم ، ويريد ، ويختار ، ويحب ، ويكره .

ولكل منهما مقومات ورغائب .

فمقومات البدن ، ورغائبه — الطعام ، والشراب ، وغيرهما من الشهوات المادية واللذائذ الحسية .

ومقومات الروح ، ورغائبها — الايمان بالله ، وتنفيذ وصاياه ، والتخلق بالفضائل التى تسمو بالنفس ، وتصل بها إلى الغاية من التأديب والتهذيب .

وبالروح تميز الانسان عن غيره فى هذا العالم ، وصار عالماً وحده .

وبالروح أسجد الله للانسان ملائكته ، وسخر له ما فى السموات ، وما فى الأرض جميعاً منه ، وجعله سيد هذا الكون ، وخليفة عنه فى الأرض .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً * »[1] .

---

(١) سورة الإسراء آية ٧٠ .

إغفال الجانب الروحى :

ولكن الانسان غفل عن هذا الجانب الروحى ، وجهل مقوماته ورغائبه ، واندفع وراء شهواته المادية ، ولذائذه الحسية ، اندفاعا صرفه عن إصلاح نفسه . وأخذها بالتربية والتقويم .

وكان من أثر ذلك أن بلغ شأوا بعيداً فى الرفاهة المادية والنعم الظاهرة ، وتخلف تخلفاً معيباً عن القيم الصالحة ، والمعانى الانسانية الرفيعة .

ولهذا جاء القرآن ينعى على الانسان هذا الأسلوب الشائن ، ويوجه نظره إلى أمراضه وعلله ، ونقائصه ورذائله . ليتخلص منها ، ويتنزه عنها . . . ويسلك السبيل القويم الجدير بالانسان كخليفة عن الله فى الأرض .

أمراض النفس :

وما أكثر الآيات التى جاءت فى القرآن الكريم لتعالج هذا النقص ، وتنبه على ضرورة التخلص منه .

يقول الله — سبحانه — :

« يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا * »(١) .

فالضعف طبيعة من طبائع النفس الإنسانية ، فالإنسان لا يكاد يستقر على شىء ، ولا يثبت على قاعدة ، بل يستجيب للمؤثرات المتعارضة ، ويتلون بألوان مختلفة ، ويبدو بوجوه متعددة .

ويقول — سبحانه — : « وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ »(٢) .

---

(١) سورة النساء آية ٢٨ (٢) سورة يونس آية ١٢ ..

« وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ . إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * » .

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * » .

« إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * »(1) .

« فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * »(2) .

« وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * »(3) .

وهذه الآيات تكشف عن مدى عتو الانسان ، وتمرده على الله عند الرخاء ، ومدى قلقه واستكانته عندما تنزل بساحته النكبات !! .

وهذا لون من ألوان الضعف النفسي .

ويقول : « إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ * »(4) .

فهو كثير الظلم لنفسه ، ولغيره . بالغ النهاية في الكفر بأنعم الله .

---

(1) سورة هود آية ٩ ، ١٠ ، ١١ .
(2) سورة الزمر آية ٤٩
(3) سورة فصلت آية ٥١ .
(4) سورة ابراهيم آية ٣٤ .

فهو لا يعدل ، ولا يعرف الجميل لصاحب الجميل !

ويقول : « وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دعَاءَهُ بِالْخَيْرِ . وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً * »[1].

أى : أنه طائش العقل يتأثر على عجل دون تريث أو أناة ، وأنه يطلب من الله الشر كما يطلب منه الخير ، وهذا منتهى الحمق !! .

ويقول : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذَنْ لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً * »[2].

ما أوسع خزائن رحمة الله ، وما أكثر ما أودع فيها من آلاء ، ومع ذلك لو ملكها الإنسان لأمسك عن الإنفاق خشية نفاد ما فيها ؛ لشح الإنسان ، وبخله ؛ إذ أن البخل جزء من كيانه !! .

ويقول : « وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً * »[3].

والجدل مظهر من مظاهر مرض القلب بالشكوك والشبهات .

ويقول : « وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً * أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً * »[4].

فهو ينسى ماضيه وحاضره ، ويتنكر للحقائق الإلهية ، ولا يتذكر آيات الله فيه وبراهينه فى نفسه !! .

---

(١) سورة الإسراء آية ١١ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٠٠ .

(٣) سورة الكهف آية ٥٤ .

(٤) سورة مريم آية ٦٦ ، ٦٧ .

ويقول : « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * »(١) .

الظلوم : هو الذى من شأنه أن يعدل ، ولا يعدل .

الجهول : هو الذى من شأنه أن يعلم ، ولا يعلم .

ويقول : « أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * »(٢) .

شديد الخصومة مجاهر بها .

ويقول : « إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * »(٣) .

أى : سريع الجزع عند الشر ، شديد المنع عند الخير ، فهو لا يصبر فى البلاء ، ولا يشكر فى الرخاء .

ويقول : « قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * — كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * »(٤) .

أى : ما أشد كفر الإنسان ؛ إذ إنه لم يؤد حق الله عليه ، ولم يقض ما أمره الله به ! ! .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

(٢) سورة يس آية ٧٧ .

(٣) سورة المعارج الآيات ١٩ — ٢١

(٤) سورة عبس الآيات ١٧ — ٢٣ .

ويقول : « فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * »[1] .

فالإنسان إذا ما ابتلاه ربه بالنعم ظن أن ذلك ضرب من التكريم ، وإذا ضيق عليه فى الرزق اعتقد أن ذلك نوع من الإهانة ، والحقيقة أن الله — سبحانه — يبتلى بالرخاء والسعة ، كما يبتلى بالبلاء والضيق ؛ ليظهر ما تنطوى عليه نفس الإنسان من الشكر ، والصبر .

ويقول : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ * »[2] .

أى أن الله — سبحانه — خلق الإنسان فى أصل فطرته سويا لا عوج فيه ، ولا انحراف .. ، ولكنه بعمله السيئ يخرج عن نظام الفطرة ، فيرتكس إلى أسفل سافلين ، و يتدلى تدلياً يصل به إلى أحط من مستوى الحيوان .

ويقول : « كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * »[3] .

أى ان الإنسان يتجاوز الحد إذا رأى نفسه غنياً بما وهب الله له .

ويقول : « إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * »[4] .

أى : أن الإنسان جحود لنعم الله ، فلا يعترف بفضله عليه .. ، وأعماله ، وأحواله تشهد عليه ، وهو شره فى حب المال .

---

(١) سورة الفجر آية ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة التين الآيات ٣ — ٦ .
(٣) سورة العلق الآيات ٦ ، ٧ .
(٤) سورة العاديات الآيات ٦ — ٨ .
[illegible]

« وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * »[1] .

وهذه جملة الأمراض النفسية المستخلصة من الآيات المتقدمة :

الضعف ، واليأس ، والقنوط ، والبطر ، والفرح ، والعجب ، والفخر ، والظلم ، والبغى ، والجحود ، والكنود ، والعجلة ، والطيش ، والسفه ، والبخل ، والشح ، والحرص ، والجدل ، والمراء ، والشك ، والريبة ، والجهل ، والغفلة ، واللدد فى الخصومة ، والغرور ، والادعاء الكاذب ، والهلع ، والجزع ، والمنع ، والتمرد ، والعناد ، والطغيان ، وتجاوز الحدود ، وحب المال ، والافتتان بالدنيا .

ولا بد من معالجة النفس حتى تبرأ من هذه الأمراض جميعها ، وتعود إليها الصحة والعافية ، وتكون نفساً مطمئنة بالحق والخير ، وفى ذلك فلاحها .

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * »[2] .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * »[3] .

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي * »[4] .

وإنما يتم العلاج عن طريق تقويم الخلق .

---

(١) سورة العصر
(٢) سورة الأعلى آية ١٤
(٣) سورة الشمس الآيات ٧ — ١٠ .
(٤) سورة الفجر الآيات ٢٧ — ٣٠

تقويم الخلق

منزلة الخلق :

إن من أجل الغايات التى تريد الرسالة الإسلامية تحقيقها هى تلك الغاية الإنسانية السامية وهى :

أن يكون للانسان خلق كريم ، وسلوك نظيف يليق بكرامة الإنسان ، و يتفق مع ما خلق له من خلافة عن الله فى الأرض . وهذه هى الغاية التى حاولها الفلاسفة والعلماء والمصلحون — عبر قرون مضت ، ولم يبلغوا فيها شأواً ، أو يصلوا إلى تحقيق هذا الأمل المنشود .

وعناية الإسلام ، وحرصه على تحقيق هذه الغاية الخلقية النبيلة يقصد بها : إيجاد عناصر قوية ، وأفراد صالحين ؛ كى يستطيعوا أن يسهموا بقلوبهم ، وعقولهم فى ترقية الحياة ، و إعلائها .

وليكونوا أهلا لجوار الله ، ورضوانه فيما وراء هذه الحياة .

إن المثل الأعلى للأفراد : هو الشرف والنزاهة ، والاستعلاء على الهوى والشهوة ، وعرفان الحق والواجب ، والاستمساك بأهداب الفضيلة ، والاندماج فى جو روحى خالص بعيد عن نقائص المادة وشوائب الروح .

والمثل الأعلى للجماعة: هو التعاون ، والإيثار ، والتضحية ، وإنكار الذات ، والمحبة والمودة ، والصدق ، والإخلاص ، والأمانة ، والوفاء ، والتسامح ، وسلامة الصدر .

وتحقيق المثل الأعلى فى جانبيه يثمر الحياة الطيبة ، و يحقق المجادة ، والسيادة والقيادة ، والتمكين فى الأرض .

وهذه هى إرادة الإسلام بالنسبة للأفراد والجماعات . يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ] .

وقد كان الرسول — عليه الصلاة والسلام — صاحب هذه الرسالة فى الذروة من الأدب العالى ، والخلق العظيم . يقول الله — تعالى — :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * »[1] .

وإنما كان ذلك كذلك ؛ لأنه النموذج الخلقى الحى ، والقدوة الطيبة للناس جميعاً

وإنما اكتسب هذا الخلق بسبب التزامه وصايا القرآن ، وتحويل هذه الوصايا إلى سلوك عملى .

قالت : عائشة — رضى الله عنها — وقد سئلت عن خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — [كان خلقه القرآن] .

ما هو الخلق ؟

النفس منشأ الفعل ومصدره .

فإذا كانت صالحة كان العمل صالحا ، وإذا كانت فاسدة كان العمل فاسداً كذلك .

يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : [إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب] .

فإذا كانت النفس منشأ الفعل ومصدره فإن الفعل ترجمة وتعبير عما تنطوى عليه .

---

(١) سورة القلم آية ٤

ولما كانت النفس غيباً لا علم للانسان به — كان الحكم على الفعل المشاهد المنظور ، وكان هذا الظاهر دليل الباطن ، وعنواناً له .

فإذا كان الفعل فى الظاهر حسناً — كان الحكم على الخلق بأنه حسن ، و إذا كان الفعل فى الظاهر سيئاً — كان الحكم على الخلق بأنه سيئ .

وهذا هو معنى قول علماء الأخلاق فى تعريف الخلق : إنه حال نفسية تصدر عنها الأفعال بسهولة ، فإن كانت الأفعال حسنة — كان الخلق حسناً ، و إن كانت سيئة — كان الخلق سيئاً .

ضابط الفعل الحسن ، والفعل السيئ :

والفعل الحسن هو الذى يوصف بأنه خير .

والفعل السيئ هو الذى يوصف بأنه شر .

والخير هو ما حبب الإسلام فيه ودعا إليه .

والشر هو ما حظره ونهى عنه .

وهذا مقياس صحيح تقاس به جميع الأفعال .

و يمتاز هـذا المقياس بأنه من الله ، وهو لذلك كان مقياساً ثابتاً لا يختلف باختلاف الأشخاص ، ولا باختلاف الظروف ، والأحوال ، والبيئات . بخلاف غيره من المقاييس التى كانت مثار خلاف كبير بين العلماء والتى ذهبوا فيها كل مذهب ، ولم ينتهوا فيها إلى شىء يمكن أن يعتمد عليه .

النفس و إرادة الخير :

والنفس من حيث إرادتها الخير لا توصف بأنها خيرة ، أو شريرة فى مرحلتها الأولى ، و إنما هى قوة يمكن أن توجه إلى الخير ، كما يمكن أن توجه إلى الشر .

يقول الله — سبحانه — : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا »[١] .

و إن كان بعض الناس يغلب عليه الخير ، و بعضهم يغلب عليه الشر ، فالناس معادن كمعادن الذهب والفضة . خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . كما يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

المنهج الخلقى :

وقد رسم الله المنهج الخلقى للبشر ، وأوضح معالمه ، ودعا إليه ، وحبب فيه .

وهذا المنهج فى كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — ويمكن الرجوع إلى آية البر[٢] فى سورة البقرة . وآيات الوصايا فى سورة الأنعام[٣] ، والوصايا من سور الإسراء[٤] ، وغير ذلك من الآيات التى وفت هذا الموضوع ، وأفاضت فيه . وكلها تدور حول فعل الخير ، وترك الشر[٥] ، ولا يتحقق هذا المنهج إلا بالتربية الدينية .

---

(١) سورة الشمس الآيات ٧ — ١٠ .

(٢) قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . . الآية) .

(٣) قوله تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . . . الآيات .) .

(٤) قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . . الآيات . . .) .

(٥) يراجع فصل : إعداد الفرد خلقيا فى كتابنا « دعوة الإسلام » .

التربية الدينية

الدين والضمير :

إن أمثل الوسائل فى تقويم الأخلاق ، وتهذيب السلوك هو الأخذ بالتربية الدينية ؛ لأن الدين بما له من تأثير على النفوس ، وسلطان على القلوب هو الذى يوقظ حواس الخير ، ويوجه إلى المكارم ، ويبعث على الفضائل ، ويحيي الضمير .

والضمير كما يقول علماء الأخلاق : هو الشعور النفسى الذى يقف من المرء موقف الرقيب — يحث على أداء الواجب ، وينهى عن التقصير ، ويحاسب بعد أداء العمل . مستريحاً للاحسان . مستنكراً للاساءة .

وهذه اليقظة الروحية هى حقيقة الإيمان وجوهره . وقد سئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن علامة الإيمان فقال: [إذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن] .

هذه اليقظة الروحية هى مظهر رضا الله وإرادته الخير بالإنسان . يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : [إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه(١)] .

والطبيعة الخيرة من شأنها أن تتجه هذا الاتجاه الخير ، وتسعى إليه ، وتحرص عليه ، ويسوءها أن تنحرف عنه .

يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : [البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وكرهت أن يطلع عليه الناس] .

وتربية الضمير تكتسب بالتعليم والمران منذ الحداثة ، وممارسة الفضائل النفسية ، وأداء الواجبات الدينية . سواء كانت شخصية ، أم اجتماعية . ومن ثم يقول الرسول

(١) رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بإسناد جيد .

— صلى الله عليه وسلم — [مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع].

و يقول: [إنما العلم بالتعلم ،والحلم بالتحلم] .

أى : إنما يكتسب العلم والحلم بالدربة ، وأخذ الأسباب إليهما .

و إنما كان ذلك كذلك ؛ لأن العبادة تجدد الإيمان ، وتعصم من الانزلاق الخلقى ، وتحفظ من اتباع الشهوات ، وتباعد بين الانسان ونفسه الأمارة بالسوء ، وتبعث فيه الرغبة فى التسامى ، والشوق إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

هذا من جانب . . . والإسلام من جانب آخر يمدح الفضائل ، و يعد عليها بحسن الجزاء . كما يذم الرذائل ، و يتهدد مقترفيها بشر العواقب .

ثم هو يتخذ جميع الذرائع لغرس العدل والإنصاف ، و إحياء فضيلة الإيثار و إنكار الذات ، و يحبب إلى النفس المعاونة ، والمؤازرة ، والمحبة ، والرحمة ، والكرم ، والإحسان ، و يروضها على الصدق ، والإخلاص ، والأمانة ، والوفاء .

وما من سبب من الأسباب التى تبعث على علو الهمة ، والإباء ، والقناعة ، ومجانبة الريب ، واحتمال الأذى من أجل الحق ، والصبر على تبعاته إلا وله فى تعاليم الإسلام مجال رحب ، وميدان فسيح .

أثر الرأى العام فى السلوك :

والنفوس الإنسانية ليست كلها مستعدة لأن تنهض بأعباء الفضائل ، وتسير وفق قانون الأخلاق .

فمن الرجال جداول وجلامد ومن النفوس حرائر و إماء

والإسلام يضع العلاج الناجع ، والخطة المثلى ؛ ليرعوى الجاهل عن جهله ، ويرجع الشارد عن شروده . فهو يوجب على كل مسلم أن يطارد الرذيلة ، و يقوم الاعوجاج

و يغير المنكر ، و ينصب من نفسه رقيباً على كل شذوذ يتنافى مع العرف الصالح والأدب الرفيع .

يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان] .

ويقول : [ما من نبي بعثه الله فى أمة إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب . يأخذون بسنته ، و يقتدون بأمره . . ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، و يفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . . ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل][1] .

وهذه الرقابة تكون رأياً عاماً تكون له الهيمنة على المثل العليا ، والقيم الفاضلة .

والرأى العام سياج منيع ، وقوة لها وزنها فى الحفاظ على العادات الحسنة ، والتقاليد الصالحة .

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ »[2] .

العقوبة كعلاج :

وفى الوقت الذى يفرض فيه الإسلام الرقابة العامة على السلوك لا يغفل جانب القوة المادية ، واستعمال العنف ، والأخذ بالحسم ، والضرب على أيدى العابثين بالقانون ، والخارجين على النظام ؛ فإن من الناس من لا ينفع فيهم إلا الشدة والقسوة .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما .. فليقس أحياناً على من يرحم

(١) رواه مسلم .　(٢) سورة التوبة آية ٧١

ومن ثم فهو يقرر لكل جريمة عقوبة ليستوفى المجرم جزاءه من ناحية ، ويرتدع أمثاله من ناحية أخرى .

« وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »[1] .

ففى جريمة القتل يوجب القصاص .

« وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ »[2] .

وفى الاعتداء على العرض بالزنا أو القذف يوجب الجلد :

« الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * »[3] .

« وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * »[4] .

وفى جريمة السرقة يقول :

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * »[5] .

---

(١) سورة الشورى آية ٤٠ .
(٢) سورة البقرة آية ١٧٩
(٣) سورة النور آية ٢
(٤) سورة النور آية ٥
(٥) سورة المائدة ٣٨

وفى الحرابة أو السرقة الكبرى يقول :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * »(١) .

وفى غير هذه الجرائم يضع الإسلام الأصل العام الذى يرجع إليه الحاكم فى تقدير العقوبة ، وهذا الأصل هو المنصوص عليه فى قول الله — تعالى — :

« وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »(٢) .

وهذه العقوبة هو التى يعبر عنها فى الفقه الإسلامى بالتعزير .

وفى الوقت الذى يقرر فيه الإسلام العقوبة لا يفرضها فرضاً ، ولا يجعلها حتمية ، بل يفتح باب العفو عنها فى غير الحدود قبل أن تصل إلى الحاكم ؛ فقد يكون العفو أصلح لنفس الجانى من العقوبة :

« فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ »(٣) .

وفى الحديث : [لأن يخطئ الحاكم فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة] .

عرض الواقع التاريخى :

وكثيراً ما يلفت الإسلام أنظار الناس إلى الواقع التاريخى للأمم السابقة ؛ ليذكرهم بسنن الله فى الاجتماع البشرى ، وأنه يستمتع بالحياة الطيبة ما أقام السنة

(١) سورة المائدة آية ٣٣، ٣٤ (٢) سورة الشورى آية ٤٠ (٣) سورة الشورى آية ٤٠ .

الصالحة ، فإذا جحد بها ، وتنكر لها دمر الله عليه ، وعذبه عذاباً نكرا .

وفى هذا التذكر العبرة النافعة ، والعظة البالغة .

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * »(١) .

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * »(٢) .

الغاية من التربية الدينية :

والغاية من التربية الدينية أن تتهذب نفس الانسان ، وتتكامل ؛ ليستطيع القيام بواجبه نحو الله ونحو أسرته ، ونحو إخوانه فى الانسانية ، وأن يقول الصدق ، ويحكم بالحق ، وينشر الخير بين الناس . . . وهذه هى درجة الصالحين التى يريدها الله للذين يتمسكون بالدين ، ويحرصون عليه .

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * »(٣) .

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ (٢) سورة هود آية ١٢٠

(٣) سورة النمل آية ١٩

مظاهر التربية :

وللتربية الدينية مظاهر تبـدو فى سلوك الفرد وتصرفاته ، منها :

انتقاء اللفظ النظيف ، والعبارة المهذبة حين الـكلام . يقول — الله تعالى — :

« وَقُلْ : لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ . إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِيناً * »[1] .

ومنها اتباع أهدى السبل ، وأقوم المناهج ، وأولاها بالحق فى العمل . يقول الله — تعالى — :

« فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ * »[2] .

والمتدين يصون قلبه من أن تعبث به الأهواء ، و يتطاع دائماً إلى ما هو أرضى وأنقى وأتقى .

ومن مظاهر هذه التربية علو الهمة ، وكبر النفس بحيث تترك الدون من شئون الحياة ، وتقتحم الصعاب فى اكتساب الفضائل ، والأخلاق العالية .

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

ومن مظاهرها قوة الإرادة والشجاعة الأدبية . بمعنى أن يتمرس المرء بالصبر والثبات والجلد ، ويطارد الجزع واليأس ، ويقول الحق دون أن يخشى فى الله لوم اللائمين .

---

(١) سورة الإسراء آية ٥٣ (٢) سورة الزمر آية ١٨

وإلى هذا تشير الآية الكريمة :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * »(١) .

وقد كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يبايع أصحابه على أن يقولوا الحق ولو كان مراً ، وألا يخافوا فى الله لومة لائم .

والإنسان الذى يتمرس بالتربية الدينية الصحيحة لا يعطل عقله ، ولا مواهبه الفكرية . فلا يصدق الوهم ، ولا يأخذ بالحدس والظن ؛ لأن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . وإنما يحكم العقل فيما يعرض عليه من مسائل العلم والكون والطبيعة والحياة ؛ ليصل إلى العلم ، وليبلغ اليقين .

وفى هذا يقول الله — سبحانه وتعالى — :

« وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً * »(٢) .

أى: لا تقل علمت والحال أنك لم تعلم ، ولا سمعت والحال أنك لم تسمع ، ولا رأيت والحال أنك لم تر ؛ لأن الله — سبحانه — سيسأل الإنسان من أين جاءه العلم عن كل ما رآه ، وسمعه ، وعلمه .

وقد تصل التربية الدينية بالإنسان إلى حد الاستهانة بالحياة ، والتضحية بالنفس وبكل شىء من أجل انتصار العقيدة ، وإحقاق الحق .

عن أنس بن النضر أنه لم يشهد مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — غزوة بدر ، فشق ذلك عليه ، وقال: أول مشهد شهده رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٠٠ (٢) سورة الاسراء آية ٣٦

غبت عنه — لئن أرانى الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ليرين الله — تعالى — ما أصنع .

فشهد مع رسول الله يوم أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو . واهاً لريح الجنة إنى أجده دون أحد ! ! .

ثم قاتلهم حتى قتل — رضى الله عنه — فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية .

قالت أخته الرُّبَيِّع : فما عرفت أخى إلا ببنانه .

وفيه وفى أصحابه نزلت هذه الآية :

« مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * »(1) .

---

(1) سورة الأحزاب آية ٢٣

عِزّةُ النفسِ

عزة النفس ، وإباء الضيم من أهم الفضائل العليا ، والقيم الصالحة التى جاء بها الإسلام .

« وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * »[1] .

وعزة النفس تتجلى أول ما تتجلى فى ابتغاء الخير ، واتقاء الشر ، والتشبث بالشرف ، والتطلع إلى معالى الأمور ، والتجرد عن الهوى ، والتخلص من ربقة الشهوات ، والتنزه عن الدنايا ، واحتقار المظاهر الكاذبة ، والجاه المزيف .

فهذه المعانى هى التى تسمو بالإنسان ، وتصل به إلى المستوى الجدير به ، وما عدا ذلك مما ينافيه فهو هبوط بالانسان ، وانحدار له عن مكانته الرفيعة .

ومن ثم يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[من سره أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن سره أن يكون أقوي الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده] .

وما شرفت النفس ، ولا عزت بمس اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل . والله — سبحانه — يحب من عبده أن يكون عزيزاً كريماً بارتياده معالى الأمور وجلائل الفعال .

---

(١) سورة المنافقون آية ٨

يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها ، ويكره سَفسافها] .

ومن مظاهر الاعتزاز بالنفس : الانتصار للحق ، ودفع الظلم ، والغضب للاهانة ، ومطاردتها بكل الطرق المشروعة ، والذرائع المعقولة . . .

والشجاعة هى درع النفس العزيزة . تتقى بها كل الإهانات التى توجه للانسان .

ومن مظاهر الشخصية القوية أن تتمرد على البغى ، وتستعصى على العسف مهما أصابها من أذى .

يقول الامام الشافعى وهو يعتز بنفسه ، ويفاخر بشجاعته ، وأنه لا يبالى بأى شىء من أجل احتفاظه بكرامته :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإن أنا مت لست أعدم قبرا

همتى همــة الملوك ، ونفسى ... نفس حر ترى المذلة كفرا . . !

ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يرى قبول الدنية والرضا بالهوان منافياً للاسلام فيقول :

[من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله فى شىء ، ومن لم يهتم بالمسلمين فليس منهم ، ومن رضى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا] .

والاسلام يخلق فى الانسان روح الشجاعة ، والمقاتلة ، ولو كان فى ذلك ضياع الحياة .

جاء رجل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : [يا رسول الله : أرأيت لو أن رجلا جاء ليأخذ مالى ؟ ! قال له : لا تعطه مالك . قال : أرأيت إن قاتلنى ؟ ! قال : قاتله . قال : أرأيت إن قتلنى ؟ ! قال : فأنت فى الجنة . قال : أرأيت إن قتلته ؟ ! قال : هو فى النار] .

وأرذل ما يوصف به الإنسان رذيلة الجبن ؛ فإنها تهدر الكرامة ، وتسقط القيمة ، وتجعل من اتصف بها من سقط المتاع .

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشق فلا يرثى له أحد

وإذا كثر الجبناء فى أمة أصابها الله بالذل كنتيجة حتمية لهذا الخلق الذميم .

والذل هو طريق العبودية ، والضعف ، والهوان ، بل طريق الموت ، والفناء ، والزوال .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ . فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا . ثُمَّ أَحْيَاهُمْ »(١) .

والموت هنا ليس هو الموت المعروف ، وإنما المقصود به : الموت الأدبى الذى يذهب بمجد الأمة وشرفها ، وحريتها واستقلالها ، والذى يمكن غيرها منها ، فيسيمها الخسف ، ويذيقها لباس الجوع والخوف . كما أن الحياة هنا يقصد بها : إعادة القوة والعزة ، والمجد والسؤدد .

وذلك أن الله — سبحانه — جعل من ذرية هؤلاء الجبناء قوة تأبى الضيم ، وتتمرد على الذل ، وتريد الحياة عزيزة كريمة ، فنهضوا بالأعباء التى قصر فى النهوض بها آباؤهم ، وأسلافهم ، فإذا الحياة الحرة الكريمة الجديرة بالأحرار تكتب لهم ليعيشوا أعزة كرماء .

وقد حكى الله لنا — كعبرة ودرس — قصة قوم موسى — حين طلب إليهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ، فأبوا جبنا ، وضعفا ، فحرمها الله عليهم ، وعاقبهم بالتيه أربعين سنة ، واعتبرهم فسقة خارجين عن دين الله .

---

(١) سورة البقرة آيه ٢٤٣ .

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ . وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا . فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا . ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * »(١) .

ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — رأى أن حياة أمته مرهونة بعزتها وشجاعتها ، فإذا انسلخت من معانى الشرف والعزة — دمر الله عليها ، وسلبها أسمى ما تعتز به أمة . يقول — صلى الله عليه وسلم — :

---

(١) سورة المائدة آيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦

[إذا هابت أمتى أن تقول للظالم : يا ظالم — فقد تُودِّعَ منهم] .

أى استحقت أن يقال لها : الوداع . . الوداع .

وكما تتمثل العزة فى شرف النفس ، وفى مقاومة الظلم تتمثل كذلك فى عدم تنازل المرء عن شىء من دينه ، أو انتقاص شىء من حريته ؛ فإن التنازل عن شىء من الدين ضلال وانحراف عن سبيل الله السوى . . ، والرضا بانتقاص شىء من الحرية والكرامة ذل وعبودية .

والضلال والعبودية كلاهما بغيض عند الله ، وحرام فى نظر الإسلام .

ولهذا فإن الاسلام يوجب المقاومة إذا أكره الإنسان على أن يتنازل عن شىء من دينه وحريته . فإن لم يقو على المقاومة وجب عليه أن يهاجر إلى مكان يأمن فيه على دينه وحريته .

« قُلْ يَاعِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ . إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * »(١) .

فإذا رضى الانسان بانتقاص دينه وحريته كان معرضاً لأقسى أنواع العذاب .

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ . قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ . قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً

(١) سورة الزمر آية ١٠

وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ . وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً * »[1] .

وإنما كانت هجرة الأنبياء والرسل ، والزعماء والمصلحين من أجل هذا المعنى ، فقد رفضوا أن يتنازلوا عن شىء من مبادئهم وآرائهم ، واستعذبوا العذاب والتشريد ، فى سبيل حريتهم وعقائدهم .

والاسلام يحبب فى هذا ، ويدعو إليه — ولو كان فى ذلك القتل — يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[من قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد] .

وعزة النفس منزلة بين الكبر والضعة ، فالأول : ترفع واستعلاء . والثانى : مهانة ومذلة ..، وكلاهما مقيت وبغيض . يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إنى أحب أن يكون ثوبى حسناً ، ونعلى حسناً ، أذلك من الكبر ؟ قال : لا . إن الله جميل يحب الجمال . . الكبر بطر الحق وغمط الناس] .

ويقول على بن عبد العزيز :

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمو هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى وما كل من لاقيت أرضاه منعما

---

(١) سورة النساء آيات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩

إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولـكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العـــدا فيم أوْ لِمَ
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لـكن لأخدما
أأشـــقى به غرسا وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهمو ولو عظموه فى النفـــوس لعظما
ولـكن أهانوه فهانوا ودنســـوا محيـــاه بالأطماع حتى تجهمـــا

الارتقاء الروحي

الارتقاء منه ما هو مادى ، ومنه ما هو روحى .

فالارتقاء المادى يتمثل فى الكشوف العلمية ، واختراعات الآلة ، وفى هذه الصناعات الكبرى والأنظمة والقوانين .

وهى وإن كانت عظيمة ومحكمة ، ووفرت للناس بعض الرخاء والرفاهية المادية — فهى لا توصل إلى الله ، ولا تصلح النفس الانسانية ، ولا ترحم الضعيف ، ولا تحقق المحبة ، ولا تجلب السلام ، ولا تقضى على العداوة والبغضاء ، ولا تصل بالإنسان إلى كماله المنشود .

إنها تجعل من الإنسان حيوانا راقياً ، ولكنها لا تخلق منه إنساناً فاضلا — كما يقول أحد الفلاسفة .

أما الارتقاء الروحى فهو غاية من الغايات التى يستهدفها الإسلام .

وهو يتجلى فى الايمان واليقين ، والطيبة والسماحة ، والمحبة والمودة ، والرحمة والشفقة ، والإيثار والتضحية ، وإقرار السكينة فى النفوس ، والطمأنينة فى القلوب ، والعدل بين الناس ، والسلام العام .

ومن أجل أن يتحقق الارتقاء الروحى كان لا بد من الإيمان بالله إيماناً يدفع الانسان إلى الخير ، ويجنبه الشر ، ويحمله على أداء الواجب ، ويمنعه من التقصير فيه .

وهذا هو الإيمان الذى أراده الإسلام .

وأى انحراف عنه فهو انحراف عن الإسلام نفسه ، ومن ثم يقول الرسول

— صلى الله عليه وسلم — [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صام ، وصلى ، وحج ، واعتمر ، وزعم أنه مسلم]،

ويقول : [لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن] .

والإيمان لا بد أن يتجسد،ويبرز فى صور عملية ، فليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل .

وقد زعم جماعة أن التمنى يبلغ بالإنسان إلى الغاية ، فأكذب الله هذا الزعم .

ورد على هؤلاء فقال :

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * »(١) .

ثم بين طريق الخلاص ، وأنه إسلام الوجه لله ، وإحسان العمل فقال :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * »(٢) .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يؤكد هذا المعنى ، وأن ذلك هو العقل والكَيْس، وأن ما عداه حماقة لا تليق بإنسان فيقول : [الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى] .

قيل للحسن : إن قوما يقولون : نحن نحب الله ويضيعون العمل . فقال :

(١) سورة النساء آية ١٢٣ — ١٢٤ (٢) سورة النساء آية ١٢٤

« هيهات هيهات ، تلك أمانيهم يتأرجحون فيها ، من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه » .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

وليس العمل مجرد عمل ، بل لا بد وأن يفرغ الانسان روحه فيه ، وأن يكون يقظاً حريصاً على انتهاز الفرص معنياً بالاصلاح والتقدم ، وتوفير الوقت اللازم لذلك .

وقد كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يقول : [إذا أتى علي يوم لم أزدد فيه علماً ، ولم أزدد فيه هدى ، فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم] .

ويدعو أمته إلى الحرص على كل نافع مادى وأدبى ، وينهاهم عن العجز والكسل فيقول : [احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإذا أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان] .

ولما أنشد النابغة الجعدى قصيدته بين يدى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ووصل إلى قوله :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهراً

فقال له الرسول : ما المظهر يا أبا ليلى ؟ قال : الجنة . قال : إن شاء الله .

والله — سبحانه — يحب معالى الأمور وأشرافها ، ويكره سفسافها ، كما جاء فى الحديث :

وحتى حين يدعو الإنسان ، فمطلوب منه أن يعظم المسألة يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[وإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى ، فإنه أعلى منازل الجنة] .

وبهذا فتح الإسلام أبواب الأمل والعمل لمن يبتغى الوصول إلى أسمى ما قدر له من كمال .

وملاك ذلك كله ضبط النفس ، ومجاهدتها حتى تستقيم على الصراط الذى يبلغ بها إلى الغاية .

فما لم تكن ثمة مجاهدة فليس الإنسان ببالغ شىء .

والله يقول : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ * »(١) .

فمواهب الله لا تعطى جزافاً ، ولا تهبط اعتباطاً ، وإنما هى كفاء جهادٍ كريم ، وتضحية غالية .

كذا المعالى إذا مارمت تدركها فاعبر إليها على جسر من التعب

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

والمجاهدة إنما هى ثمرة قوة الإرادة ، والتمرس بالصبر ، والثبات والجلد ، وتحدى المثيرات ، والتغلب على المغريات ، والوقوف منها كالصخرة الصماء الراسخة أمام الرياح العاتية . يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : [ما يكون من خير فلن أدخره عنكم . . . ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله] .

فالعفة والغنى والصبر ثمرة الاستعفاف والاستغناء ، والتصبر أى : مجاهدة النفس وحملها على الاتصاف بهذه الخلال الكريمة .

وقوام الإرادة القوية الطمع فى رحمة الله ، والخوف منه .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩

وغاية ذلك كله أن يصل الإنسان إلى المستوى الإنسانى الرفيع ، وأن يحقق إرادة الله فيه ؛ ليندمج فى عباد الله الصالحين الذين سبقت لهم من الله الحسنى .

ولقد كانت غاية أنبياء الله أن يحققوا هذا الهدف الأعلى، ويصلوا إليه، فكانت أعمالهم وأقوالهم تتجه هذا الاتجاه .

يقول يوسف — عليه السلام — :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * »[1] .

فلم يكتف بما أفاض الله عليه من نبوة وبما وهبه من علم ، وبما أعطاه من ملك . وإنما طلب إلى ذلك كله أن ينتظم فى سلك عباد الله الصالحين ، وأن يلقى الله وهو مسلم .

ويقول سليمان عليه السلام :

« رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * »[2] .

وهذا أسمى ما يمكن أن يصل إليه إنسان .

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ »[3] .

(١) سورة يوسف آية ١٠١
(٢) سورة النمل آية ١٩
(٣) سورة العنكبوت آية ٩

قوة العِلْمُ ...

الدعوة إلى العلم

وسائل العـلم : *

الإنسان حين يأتى إلى هذه الحياة يأتى مجرداً عن العلم والمعرفة وإن كان مزوداً بالاستعداد والقوى والأدوات التى يمكن بها أن يعلم ويعرف . يقول الله — سبحانه وتعـالى — :

«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *»(1) .

فالسمع والبصر والعقل هى الأدوات التى يكتسب بها الإنسان معلوماته . وهى المنافذ التى يطل منها على هذا الكون الفسيح ؛ ليعرف أسراره ، ويدرك شئونه ، وينتفع بمـا أودع فيه من بركات الله .

والذين لا ينتفعون بهذه الأدوات قد انسلخوا من إنسانيتهم ، وانتظموا فى عداد الحيوان ؛ حيث فاتهم العلم كمقوم لشخصياتهم . يقول الله — سبحانه وتعالى — :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * »(2) .

---

* من كتابنا (دعوة الإسلام)

(1) سورة النحل آية ٧٨ .

(2) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

وأسباب العلم هى :

(١) القراءة .

(٢) النظر والتأمل فى ملكوت الله .

(٣) السير فى الأرض .

فهذه هى التى تمد الإنسان بالكثير من العلم الصحيح والمعرفة النافعة .

وكثيراً ما يلفت الإسلام إليها الأنظار ، ويوجه لها العقول .

ففى القراءة يقول الله — سبحانه — :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * »(١) .

ويقول الله :

« وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * »(٢) .

وقد جعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — فكاك الأسير الذى لا يملك الفداء أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة ، وكان ذلك فى غزوة بدر .

وفى النظر والتأمل يقول الله — سبحانه — :

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * »(٣) .

---

(١) سورة العلق الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .
(٢) سورة ن آية ١ .
(٣) سورة يونس آية ١٠١ .

ويقول — تعالى — :

« أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ »(١) .

ويقول — تعالى — :

« قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا »(٢) .

ويقول — تعالى — :

« إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * »(٣) .

وقد قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذه الآية ، ثم قال :

[ويل لمن قرأها ، ولم يتفكر . ويل لمن قرأها ، ولم يتفكر] .

وفى السياحة والسير فى الأرض يقول الله — سبحانه — :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ،

(١) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(٢) سورة سبأ آية ٤٦ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .

أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * »(١) .

ويقول — تعالى — :

« أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * »(٢) .

ولا يكتفى الإسلام بالإرشاد إلى أسباب العلم ، ووضع المنهج الصحيح للوصول إلى الحقائق ، ولكنه يدفع الإنسان دفعاً إلى تحصيله ، واكتسابه والاستزادة منه ، يقول الله — سبحانه — :

« وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً * »(٣) .

وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — بعد نزول هذه الآية يدعو الله فيقول : [اللهم علمنى ما ينفعنى ، وانفعنى بما علمتنى ، وزدنى علماً ، والحمد لله على كل حال] .

وإنما يطلب الإنسان المزيد من العلم دون غيره من شئون الدنيا ؛ لأن من أوتى العلم ، فقد جمع الخير من أطرافه .

يقول الله — سبحانه وتعالى — :

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً . وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ * »(٤) .

---

(١) سورة الحج آية ٤٦ .
(٢) سورة العنكبوت آية ١٩ ، ٢٠ .
(٣) سورة طه آية ١١٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

والدنيا لا وزن لها بالقياس إلى العلم . يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :
[الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالماً ، أو متعلماً [1]] .

ولهذا السبب نفسه كان الحسد الذى هو بمعنى الغبطة ، وتمنى مثل ما للغير مما يرحب به الإسلام فى هذا الباب .

يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه اللهُ الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها [2]] .

ويقرر الإسلام أن غاية الرسالة الإسلامية هى تلاوة آيات الله على الناس ، وتزكيتهم بالتحلى بالفضائل ، والتخلى عن الرذائل ، وتعليمهم الكتاب والحكمة .

يقول الله — سبحانه — :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * »[3] .

والعالم والجاهل لا يستويان ، لا فى المنزلة عند الله ، ولا فى الوجاهة عند الناس ، ولا فى فهم قيمة الحياة .

يقول الله — سبحانه — :

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * »[4] .

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .
(٣) سورة الجمعة آية ٢ .
(٤) سورة الزمر آية ٩ .

فالعالم له قدره ، ومنزلته ، ومكانته :

يقول الله — سبحانه — :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ . وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »[1] .

أما الجاهل فهو مطموس البصيرة ، منقوص القدر .

يقول الله — سبحانه — :

« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * »[2] .

ومثلهما مثل البصير والأعمى ، هل يستويان مثلا ؟ .

يقول الله — سبحانه — :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * »[3] .

والذى لا يعرف للعالم قدره لاحق له فى شرف الانتساب إلى هذا الدين. يقول الرسول —صلى الله عليه وسلم — :

[ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه] .

والله — سبحانه — يعتد بشهادة العلماء على أكبر حقيقة من الحقائق الإلهية ، وينزلها المنزلة التى تلى شهادة الملائكة .

---

(١) سورة المجادلة آية ١١ .
(٢) سورة الروم آية ٥٩ .
(٣) سورة الرعد آية ١٩ .

يقول الله — سبحانه — :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * »[(١)] .

ويضم — سبحانه وتعالى — إلى شهادته شهادتهم :

« قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ * »[(٢)] .

والعلم هو ميراث النبوة ، فعن أبي الدرداء — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :

[من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم تورث درهما ولا ديناراً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر[(٣)]] .

والساعى فى تحصيل العلم واكتسابه مجاهد فى سبيل الله ، فعن أنس — رضى الله عنه — أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قال :

[من خرج ليطلب باباً من العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع[(٤)]] .

والعلماء الذين يحملون الخير للناس يستحقون كل إكبار و إجلال ، وينالهم من عناية الله وبركاته مالا يخطر على قلب بشر ، فعن أبى أمامة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — قال :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨ .
(٢) سورة الرعد آية ٤٣ .
(٣) رواه أبو داود والترمذى .
(٤) رواه الترمذى قال : حديث حسن .

[إن الله ، وملائكته ، وأهل السموات والأرض ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت ، ليصلون على معلم الناس الخير[1]] .

وهم خلفاء النبوة الذين تحفهم الرحمة ، وتغشى وجوههم النضارة . يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[رحم الله خلفائى ، قالت الصحابة : ألسنا خلفاءك يا رسول الله ؟ قال : أنتم أصحابى ، وإنما خلفائى الذين يأتون بعدى ، ويتعلمون سنتى ، ويعلمونها الناس] .

ويقول — عليه الصلاة والسلام — :

[نضر الله امرءا سمع مقالتى ، فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع[2]] .

وطبيعة المؤمن التطلع إلى المزيد من العلم ، وأنه نهم لا يشبع منه قط ، فعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال —:

[لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة[3]] .

والإسلام إنما ينوه بالعلم ، ويرفع من شأنه ، ويدفع أهله إليه ؛ لأن به يميز الإنسان بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والصواب والخطأ ، والهدى والضلال ، والحسن والقبيح ، والنافع والضار ، فهو للعقل كالنور للعين لا يستغنى عنه بحال .

ومن ثم كانت قيمة الإنسان على قدر تحصيله منه .

وعلى قدر أخذ الأمم به يكون نهوضها الحضارى ، ورقيها الصناعى ، وازدهارها التجارى ، ونموها الزراعى ، واتساعها العمرانى ، فهو الذى يرقى بالحياة، ويجعلها وارفة

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن

(٢) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن

الظلال جديرة بأن ينعم بها الإنسان ، ويسعد ، فعن معاذ — رضى الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال :

[تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الأخلاء ، ويرفع الله به أقواماً ، فيجعلهم فى الخير قادة : تقتفى آثارهم ، ويقتدى بفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، ويستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البحر وأنعامه ؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلا فى الدنيا والآخرة ، والتفكير فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعه . يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء (١)] .

والعلم الذى يطلبه الإسلام هو :

الوحى : كتاباً وسنة ، عقيدة وشريعة ، وفى هـــذا يقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — :

[العلم ثلاثة : آية محكمة ، وسنة قائمة ، وفريضة عادلة] .

وفى العقيدة يقول الله — سبحانه — :

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » (٢) .

---

(١) رواه ابن عبد البر فى كتاب العلم بإسناده إلى النبى صلى الله عليه وسلم ورواه موقوفاً على معاذ رضى الله عنه .

(٢) سورة محمد آية : ١٩

وفى الشريعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة] .

والعلم المفروض هو العلم الذى طلب العمل به ، فالعلم بأحكام الصلاة فرض ، ومعرفة الحلال والحرام فرض ، وهكذا كل ما وجب عمله وجب العلم به ..

وأية عبادة لا تبنى على علم ومعرفة فهى عبادة باطلة ، لا تقبل بحال أبداً .. فالله لم يعص بمعصية أشد من معصية الجهل .

وكان الإمام على يقول : « قصم ظهرى اثنان : جاهل متنسك ، وعالم متهتك » .

والعلوم المستمدة من الوحى هى: التفسير ، والسنة ، والسيرة ، والتوحيد ، والفقه والتاريخ الإسلامى ، والنظم الإسلامية ، والتصوف .

وما وراء ذلك من علوم الكون فهو مما يدعو إليه الإسلام ، ويحث عليه؛ لتعرف سنن الله فى الكون ، وأسراره فى الخلق ، وحكمته فى الوجود .

ودراسة العلوم الكونية والإنسانية لا تقل فى أهميتها عن دراسة العلوم الشرعية ، وهى علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والأحياء ، والنبات ، والنفس والاجتماع ، والتاريخ العام .

ولنتدبر هذه الآيات التى يقولها الله سبحانه ، وتعالى :

«أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا[1] » .

(١) سورة ق الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ .

ويقول الله سبحانه :

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ »[1] .

ويقول الله سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ * »[2] .

ويقول الله سبحانه :

« فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * »[3] .

ويقول الله سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ، فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ ، يَكَادُ سَنَا

---

(١) سورة الروم آية ٢٢ . (٢) سورة فاطر الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) سورة الروم آية ٥٠ .

بَرْقِه يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ * »[1] .

ويقول الله سبحانه :

« فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * »[2] .

ويقول الله سبحانه :

« وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * »[3] .

ويقول الله سبحانه :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلاَ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطٌ * »[4] .

أليس فى هذه الآيات ما يقطع بأن تحصيل علوم الكون : من طبيعة وحياة ونبات ، واجتماع ، ونفس ، وتاريخ ، من لب الإسلام وصميمه ؟ .

وبالإضافة إلى هذا : أن الله — سبحانه — أخبر فى أكثر من آية ، أنه — سبحانه — سخر ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً .

---

(١) سورة النور الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) سورة الطارق الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٣) سورة الذاريات الآيتان ٢٠ ، ٢١ .
(٤) سورة فصلت الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

والتسخير هو التهيئة للانتفاع بها ، وهل ينتفع بها ، مع الجهل بها ، والغفلة عنها ؟.

إن الانتفاع بها لا يأتى عفواً ، وإنما يتم بعد علم صحيح بوسائل الانتفاع وطرقه وأسبابه .

وأخيراً فإن علماء الإسلام قد اتفقوا على أن تعلم الفنون والعلوم التى تقوم بها الصناعات ، والتى لا غنى للناس عنها — ولا سيما الفنون العسكرية — واجب كفائى ، إذا قام به البعض سقط الحرج والإثم عن الأمة كلها ، وإذا أهمل أثم الكل وحوسبوا عليه الحساب العسير ، وقد تبع العلماء فى ذلك القاعدة العامة « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

وكل ما نلفت النظر إليه فى دراسة هذه العلوم ، أن يبرز ما فيها من سر ودلالة على عظمة الخالق ، وقدرته ، وحكمته .

أما العلوم الشرعية فإنه يحسن أن نلقى نظرة عابرة على دراسة كل منها .

العلوم الشرعية

دراسة التوحيد :

التوحيد ينتظم ما يأتى :

١ — الله : ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

٢ — النبوات ، والرسالات .

٣ — الغيبيات .

٤ — اليوم الآخر .

وهذه الجوانب قد بينت فى الكتاب ، والسنة ، بياناً شافياً ، ولم يبق فيها زيادة لمستزيد .

ويجب علينا فى دراستها أن نقتصر فيها على ما جاء فى الكتاب والسنة ، مع بيان أثرها فى النفس والحياة .

ولا ينبغى أن تقتصر الدراسة على مجرد حشو الأذهان بهذه المعلومات . كما جرى عليه العمل منذ تحول التوحيد إلى قضايا منطقية، ومسائل فلسفية، ومناقشات كلامية جدلية ، وإنما يجب أن تكون دراسة التوحيد دراسة مكونة للعقائد ، ومربية للملكات ، ودافعة إلى السمو ، وجاعلة من الإنسان قوة إيجابية فى الحياة .

لقد جنى المسلمون على أنفسهم جنايات خطيرة بانحرافهم عن هذا المنهج الدراسى الذى التزمه الرسول — صلى الله عليه وسلم — ، وربى به أصحابه ، فجعل منهم — بعد الشرك والوثنية — قادة فى الإصلاح ، وأئمة للخير ، وأعزة بالإيمان ، وأقوياء بالحق . . من أمثال أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى .

لقد كانت تربية الرسول — صلى الله عليه وسلم — للكتيبة الأولى بغرس عقيدة التوحيد فى أنفسهم غرساً أثر ثماره فى الجزيرة العربية ، بل فى آفاق الدنيا ، ولا تزال خطة الرسول — صلى الله عليه وسلم — هى الخطة المثلى التى لا يحل لنا أن نعدل عنها إلى غيرها ؛ حتى تكون لنا العقائد الحقة التى تدفعنا إلى مجد الحياة ، وشرف الآخرة .

دراسة التفسير :

إن القرآن هو : كتاب الإسلام الأول ، ودستوره الذى كشف عن حقائق الدين ، ورسم مناهج الحياة للفرد ، وللأسرة ، وللجماعة ، وللدولة وهو الذى نهض بالأمة ، ولا يزال قادراً على إمدادها بالحياة القوية ، وهو وحده الذى يستطيع أن يهبها الروح الجديدة، والدم الجديد .

وليس هناك من علم يحل محل القرآن فى تنوير العقل ، وتطهير القلب ، وتزكية النفس ، وإحياء الضمير ، وهداية الإنسان إلى خالقه وبارئه ، والنمو بالأمة إلى مكان الصدارة والقيادة ، ومن ثم كانت دراسة القرآن من الأهمية بمكان .

وحتى تتم دراسته دراسة نافعة ، لابد من تعلم وتعليم اللغة العربية ، وفنونها ، وآدابها ، تعلماً وتعليما يوصل إلى تذوق الجمال الفنى فى القرآن الكريم .

ومع ذلك فلا غنى عن تفسير للقرآن يتميز بالسهولة ، والبعد عن التعقيد . . كما يتميز بالكشف عن جمال القرآن ، والإشارة إلى موضع العبرة فيه ، ويمكن تلخيص المنهج لهذا التفسير فيما يلى : (١)

١ — لا يزيد حجم التفسير على مثلى حجم المصحف .

---

(١) هذه توصيات لجنة التفسير التى ألفتها وزارة الأوقاف لوضع تفسير عصرى مناسب وكنت أحد أعضائها .

٢ — يكتب المصحف بأرقام الآيات في الصلب ، ثم في أسفل الصفحة يكتب رقم الآية بجوار معناها ، ويذكر المعنى مسلسلا .

٣ — يكتب مقدمة لكل سورة تشمل الغرض العام لها .

٤ — لا يتعرض لأسباب النزول إلا إذا كان معنى الآية متوقفاً على ذكر السبب .

٥ — يذكر معنى الآية من غير تعرض لتحليل الألفاظ لغوياً .

٦ — لا يذكر من الأحكام الفقهية إلا ما يكون ثابتاً في نص الآية ، وما زاد على ذلك يذكر الضروري منه في الهامش ، أو في الأصل حسب ما يقتضيه المقام .

٧ — يختار من التفسير ما يدفع التعارض بين الآيات .

٨ — بالنسبة للمتشابه :

(أ) ما يقبل التفسير يلتزم فيه طريقة التفسير .

(ب) أوائل السور وهي حروف صوتية يكتفى بذكر حكمتها ، وهي التنبيه إلى الإعجاز ، والتنبيه إلى الاستماع .

٩ — الآية المتكررة تفسر كما هي في القرآن الكريم ، مع بيان حكمة التكرار إذا اقتضى المقام ذلك .

١٠ — قصص القرآن يفسر كما جاء في القرآن مع ذكر العبرة بإيجاز ، وذكر ما يحتاج إليه من تفصيل تاريخي ، أو بيان لحقائق علمية ، وكل ذلك بالهامش .

١١ — تفسر الآيات التي تتضمن حقائق علمية كما تدل عليها عبارات القرآن وتحقق الحقائق التي تشير إليها الآيات في الهامش .

دراسة السُّنة :

والسنة — وأعنى بها : أقوال الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأفعاله ، وتقريراته — هى المصدر الثانى الذى يلى القرآن فى تبيان عقائد الإسلام ، وعباداته ، وآدابه ، وشرائعه ، ومناهجه .

وهى بهذا المعنى تبين الكتاب الكريم ، وتفسره كما أنها تستقل بتشريع الأحكام ، وتنص على تحليل الحلال ، وتحريم الحرام ، مما لم يرد له فى القرآن نص .

ولقد كان هذا مقرراً ومتفقاً عليه بين علماء السلف مما حملهم على أن يولوا السنة كل عنايتهم ، وأن يتجرد جماعة منهم ، ويقفوا حياتهم على جمعها ، وتبويبها ، وتمييز المقبول منها من المردود .

إلا أن هذه الجهود كانت جهوداً فردية ، فلم يتح لكل من تصدى لهذا الأمر أن يبلغ الغاية ، وإن كان مجموع ما خلفوه يعد ثروة ضخمة قل أن يوجد لها فى العالم نظير .

لهذا كان من الضرورى أن تؤلف لجنة يختار أفرادها من علماء السنة يعهد إليها :

١ — بجمع الأحاديث الصحيحة الموزعة فى دواوين السنة .

٢ — وتبويبها تبويباً عصرياً .

٣ — تقوم بشرح هذه الأحاديث شرحاً سهلا مبسطاً ملائماً للبيئة مع المحافظة على الدلالات الحقيقية للألفاظ العربية ، ويستحسن أن يكون الشرح مدعوماً بالآيات القرآنية .

٤ — يوفق بين الأحاديث الظاهرة التعارض بقدر الإمكان .

٥ — يراعي في شراح الحديث التخصص ، فعلماء العقائد يشرحون الأحاديث.

المتعلقة بالإيمان وما يتعلق به ، وعلماء الفقه يشرحون أحاديث الأحكام باختصار مع تجنب الخلاف إلا بالقدر الضرورى .

وعلماء النفس والاجتماع يشرحون الأحاديث الخاصة بالتربية ، والسلوك ، والتهذيب ، والفضائل ، والرذائل . وعلماء الطب يشرحون أحاديث الطب النبوى .

وهكذا يقوم كل فريق من المتخصصين بشرح الأحاديث الداخلة فى دائرة تخصصه .

وبهذا نكون قد نقينا السنة ، وخلصناها من الأحاديث الموضوعة ، والضعيفة التى شوهت جمال الإسلام ، وحرفت تعاليمه .

كما أننا نكون قد قربناها من أفهام الجماهير مما يغريهم بقراءتها ، والانتفاع بها ، وهذا خير ما يخدم السنة ، ويقدم للناس أجل تراث روحى تركه أعظم بشر عرفته الدنيا .

دراسة الفقه :

والفقه هو الذى يمثل الناحية العملية فى الشريعة الإسلامية ، وقد تحدثنا عن دراسته فى مقدمة كتاب فقه السنة ، والذى نريد أن نذكره الآن هو أن تعاد الكتابة فيه من جديد على طريقة فقه السنة فى التزام النصوص الصحيحة فيما يتصل بالعبادات ، والحلال والحرام ، والحدود والقصاص .

ولا بد من البعد عن الخوض فى المسائل والفروض التى لم تقع ، ووزن القضايا التى لم يرد بها نص بميزان المصلحة والمفسدة ، ووزن المشكلات المعاصرة بهذا الميزان .

ومثل هذا العمل الكبير يحتاج إلى تضافر جهود العلماء ، والفقهاء الذين تخصصوا فى دراسة الفقه ، وتعمقوا فى معرفة الشريعة ، وفهم روحها .

ولا يترك ذلك للجهد الفردى ؛ فإن الجهد الفردى مهما كان مبلغه فهو عرضة للخطأ .

وتشعب فروع المعرفة ، وكثرة أعباء الحياة، لم تجعل الفرد قادراً على أن يقوم وحده بكبير عمل فى هذا الجانب .

ولقد كان للاجتهاد الفردى آثار لا تزال الأمة تعانى منها ، فاختلاف المذاهب والتعصب لكل مذهب ، وتشعب هذا الخلاف ، وهذا التعصب أدى إلى تفرق الأمة ، وضعف الروابط التى تؤلف بينها ، وتقوى من وحدتها .

وإننا نقترح أن يعمل المسئولون على تكوين « مجمع للفقه الإسلامى » ونضم صوتنا بقوة إلى صوت المنادين بضرورة إنشاء هذا المجمع .

دراسة السيرة :

ورسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ليس إنساناً عادياً ، وإنما هو شخصية فذة امتازت بقوى بدنية وعقلية ونفسية وروحية ، تكاد تكون خارقة للعادة .

وفضلا عن ذلك ، فإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان المثل الأعلى فى سلوكه الفردى ، وفى قيامه بحق الله ، وفى صلاته بأسرته وإخوانه وسائر أصدقائه ومعاشريه .

كما كان المثل الأعلى فى فنائه فى الحق ، وتضحيته من أجله ، ومواجهة الصعاب التى تعترضه بقوة وبسالة ، وهو المثل الأعلى فى حربه وسلمه ، فى أحكامه وقضائه ، فى قيادته وسياسته ، وفى زهده فى الدنيا وعزوفه عنها .

فكان العابد المتبتل ، والقاضى العادل ، والسياسى المحنك ، والهادى الرشيد ، والأب الحانى ، والمعلم البار ، والقائد المظفر ، والصديق الوفى ، والزوج الرفيق ،

والنبى الصالح الذى لم يعرف الناس بشراً سبقه فى كماله أو لحق به .

وهو بهذا كان القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة ، والكمال المجسم ، والنموذج المحتذى .

وكتابة السيرة يجب أن تبرز هذه العظمة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن حياته لم تكن حياة عادية ، فيجب ألا تكتب سيرته كتابة عادية كما هو معروف لنا جميعاً .

إن علينا أن نكتب السيرة ، ونبرز فيها جوانب الكمال، من أجل أن تتحقق الغاية منها ، وهى الاقتداء به فى أقواله وأفعاله ، وأخلاقه وآدابه ، وحربه وسلمه ؛ لنصل إلى المستوى الإنسانى الرفيع بقدر ما فى وسعنا .

النظم الإسلامية :

والإسلام نظام عام يتناول شئون الحياة جميعاً ، ففيه :

١ — النظام العبادى . ٢ — النظام الأسرى .

٣ — النظام الاجتماعى . ٤ — النظام المدنى .

٥ — النظام الجنائى . ٦ — النظام الاقتصادى .

٧ — النظام الإدارى . ٨ — النظام السياسى .

وهذه النظم مأخوذة من الكتاب ، والسنة ، وأعمال الخلفاء الراشدين . كما أنها مستنبطة بواسطة اجتهاد الأئمة المجتهدين .

وهذه النظم لم تأخذ العناية الكافية من حيث التبويب ، والتنظيم ، والفهرسة ، فهى مع كثرتها ودقتها ، موزعة بحيث يصعب على المتخصص الوصول إليها فضلا عن غيره .

ولا محيص من تنظيم هذه الدراسات ، وجمعها من مظانها ، وفهرستها ، وإخراجها إخراجاً حديثاً ، يتناسب مع أسلوب العصر ، الذى نعيش فيه .

وهذه النظم تغنى عن غيرها ، ولا يغنى غيرها عنها ، بل إن فيها ما هو أسمى وأجل من أحدث النظم العالمية التى يفخر بها علماء الغرب المعاصرون .

ودراسة النظم الإسلامية لا تظهر روعتها ولا جدتها إلا بمقارنتها بغيرها من النظم ، ولذا كانت الدراسة المقارنة هى الدراسة التى يجب أن نتجه إليها فى دراستنا لهذه النظم .

التاريخ الإسلامى :

والتاريخ الإسلامى تراث الآباء ، والأجداد ، وميراث الأبطال ، والأمجاد ، وهو زاد ثقافى لم يتح مثله لأمة من الأمم .

وإن دراسته لم تلق العناية الجديرة بها ، ولم يهتم بها اهتماماً يبرز حقائق التاريخ الإسلامى ، ويوضح معالمه ، ويكشف المستور منه .

ولهذا كان من الواجب أن تسلط الأضواء على هذا التراث العظيم ، وأن توضع الخطة الدراسية ، والمنهج الذى يحلل لنا هذه الدراسة ، ويكشف لنا عن حضارة الإسلام ، ومآثرها على العالم الإسلامى ، وآثارها فى الحضارة الغربية الحديثة وتفوقها عليها ، ولا سيا تفوقها فى الجانب الروحى ، وبيان الأسباب التى أضعفت نشاطها وعطلت نماءها بعد سموق وازدهار .

ولابد من معرفة كيفية العودة إلى إحياء هذه الحضارة من جديد ، وبعث الحياة فى هذا التراث الخامد ؟

دراسة التصوف :

التصوف علم من العلوم الإسلامية ، وهو فى حقيقة أمره روح الإسلام ، وجوهره ، ولقد كان للتصوف يوما ما صولة ودولة ، وكانت له مكانته المرموقة

فى المجتمع الإسلامى إلا أنه كسائر العلوم الإسلامية أضيف إليه ما ليس منه ، ودخل فيه رجال ليسوا من أهله ، كالدجالين ، والمخرفين ، والفارغين ، فوجدوا فيه مجالاً فسيحا لدجلهم ، وخرافاتهم ، وشعوذتهم ، فأساؤا بذلك إليه أبلغ إساءة ، وأصبح التصوف مظهراً من مظاهر الفقر ، والجهل ، والضعف ، والتخاذل ، والاستسلام ، والفراغ من العمل ، مما كان له الأثر السيء فى المجتمع الإسلامى .

ولا غنى عن الرجوع بالتصوف إلى خصائصه ، وروحه النقية ، وجوهره الحقيقى بعد أن نزيل عنه ما غشيه من بدع ، وخرافة ، وشعوذة ، لا تمت إليه بصلة .

والعودة إلى نقائه وصفائه لا تجهدنا كثيراً إذا احتكمنا إلى الكتاب والسنة ، ورجعنا إلى أئمة التصوف الذين يقتدى بهم ، ويؤخذ عنهم .

وقد أصدر فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قراراً بتأليف لجنة للنهوض بالطرق الصوفية ، وكنت مقرراً لهذه اللجنة .

وقد كتبت تقريراً ، وقدمته إلى اللجنة ، فوافقت عليه ، ورفع إلى الأستاذ الأكبر ، فوافق عليه ، وأمر بطبعه ، ونشره ، ومطالبة المسئولين بتنفيذه .

وفيما يلى هذا التقرير :

١ — يوجد بالإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة ما يقرب من ستين طريقة ولكل طريقة شيخ ومريدون .

وهم يمثلون فى تشكيلهم النظام الهرمى ، إذ يبدأ هذا النظام بالمريدين الذين هم أتباع الطريقة ، كقاعدة لهذا التشكيل ، ويرأس كل طريقة شيخ ، ويتولى الإشراف على هؤلاء الشيوخ المجلس الصوفى الأعلى ، وعدد أعضائه أربعة ينتخبهم شيخ مشيخة الطرق الصوفية من بين ثمانية من مشايخ الطرق تنتخبهم جمعية عمومية مؤلفة من مشايخ الطرق ، وتجرى الانتخابات بمحافظة القاهرة برياسة السيد المحافظ ، وتتجدد الانتخابات كل ثلاث سنوات .

ويرأس هذا الجهاز كله شيخ مشيخة الطرق الذى يعين بقرار من رئيس الجمهورية .

٢ — وهذه الطرق لها نفوذ واسع إذ يبلغ أتباعها عدة ملايين كما أن لها الأثر البعيد المدى فى حياة هؤلاء المريدين وفى سلوكهم ؛ فهى التى تملك توجيههم الوجهة التى تريدها بما تلقنه لهم من تعاليم ، وبما تبثه فيهم من أفكار ، ثم أن هؤلاء المريدين يتقبلون هذه التوجيهات ، ويحرصون عليها ، وينفذونها بدقة ، اعتقاداً منهم أنها تستوجب رضا الله ، وبركات الشيخ، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة ، وهذه الاستجابة عامة فى جميع أتباع الطرق الصوفية ، فهى ليست قاصرة على فئة من الناس دون فئة ، وإنما هى عامة ، يستوى فى ذلك العالم وغيره ممن لم يدرس علماً ، أو يحظ بنصيب منه .

٣ — وكما أن الطرق الصوفية تحظى بقدر كبير من التقدير والاحترام ، وتبسط سلطانها على عدد وفير من الأفراد داخل نطاق الجمهورية العربية المتحدة، فهى كذلك لها منزلتها ومكانتها خارج هذا النطاق فى قارتى إفريقيا وآسيا ، وهى التى يعزى لها الفضل فى الوقوف ضد محاولات التبشير والاستعمار فى هاتين القارتين ، والمحافظة على بقايا التعاليم الإسلامية فى الجهات النائية التى انقطعت صلتها بالأجزاء النشطة من العالم الإسلامى .

٤ — ومع أن لهذه الطرق هذه الآثار النافعة فإنه قد دخلها — مع طول العهد وفشو الجهل — الكثير مما يشوه جمالها ، ويجعلها غير قادرة على مواصلة السير للوصول إلى غايتها المنشودة .

ومن أمثلة ذلك تفشى الأمية الدينية والاجتماعية بين مشايخ الطرق والخلفاء ، مما ساعد على انتشار الخرافات والترهات والأباطيل التى تختلف كل الاختلاف عن المعقول السليم ، والمنقول الصحيح ، ومبادىء المعرفة الإنسانية ،

ومنها : تقديس المشايخ وأرباب الطرق والاعتقاد فيهم إلى حد يشبه العبادة .

ومنها : انتشار الآراء الباطلة والمعتقدات الفاسدة كاعتقاد أن الولى يملك الضر والنفع ، وأنه يستطيع شفاء المرضى وإطالة العمر وتوسيع الرزق ، وغفران الذنوب ، وأن له من الجاه عند الله ما يستطيع به أن يفعل ما يشاء ويقضى ما يريد ، وأن البركة حلت بمسجده وضريحه ، وأنه يصل إلى حد يسقط عنه فيه التكاليف الشرعية ، . .

ومنها : ظهور المنتسبين إلى الطرق بمظهر كريه فى الأحفال الدينية وحلقات الذكر والموالد كالإيقاع الموسيقى ، وإنشاد قصائد الغزل ، واختلاط الرجال بالنساء ، والضرب بالسيف ، ونحو ذلك من أكل الزجاج وابتلاع النار والحيات .

ومنها : شيوع الأفكار السيئة التى تشل حركة النشاط الإنسانى من التواكل والكسل وأكل أموال السذج من العمال والفلاحين باسم الدين .

٥ — وهكذا نجد الأمثلة الكثيرة على مدى الانحراف الذى أصاب هذه الطرق الصوفية ، والذى لا يقتصر ضرره على الأفراد المعتنقين لها والمؤمنين بها ، وإنما يعم ضرره الأمة جميعها فى عقولها وأفكارها وسلوكها وإنتاجها المادى والأدبى .

وفضلا عن ذلك فإنه يظهر الإسلام بمظهر الدين الذى يحتضن الخرافة ويبارك الجهالة ، ويقدس السذاجة والتغفيل .

يضاف إلى هذه الأضرار الدينية والاجتماعية والمادية كنتيجة لهذا الانحراف ما يصيب سمعتنا ، ويجرح كرامتنا أمام العالم الخارجى ، ولا سيما وأن لنا من الخصوم من يحاول بكل وسيلة أن يظهرنا كجماعة متخلفة عن ركب الحضارة ، وأننا غير جديرين بأخذ مكاننا تحت الشمس .

٦ — لهذا كله ولغيره مما لا يتسع المقام لذكره رأت اللجنة التى تم تكوينها

حسب القرار رقم ٦١٤ بتاريخ ٢٦ / ٤ / ١٩٥٩ بشأن تأليف لجنة مشتركة من الأزهر ووزارة الأوقاف ووزارة الشئون الاجتماعية ومشيخة الطرق الصوفية الذى أصدره فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر - بعد أن عقدت أربع جلسات استعرضت فيها جميع الحالات واسترشدت فيها بتوجيهات فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، رأت اللجنة اتخاذ التوصيات الآتية :

١ — يوضع اختبار لمشايخ الطرق الصوفية والخلفاء الحاليين فى المواد الآتية :

(١) القرآن الكريم . (٢) السيرة النبوية .
(٣) التوحيد . (٤) التصوف .
(٥) فقه العبادات .

على أن يبقى فى منصبه من يجتاز الاختبار وتترك فرصة كافية لمن لم يكن له استعداد كاف ، أقصاها مدة عام . ويعزل عن المشيخة أو الخلافة من يثبت عدم صلاحيته .

ويقوم بهذا الاختبار لجنة مكونة من علماء الأزهر وعلماء التصوف ، يختارهم فضيلة وكيل الجامع الأزهر وسماحة شيخ الطرق ، ويصدق على اختيارهم فضيلة الأستاذ الأكبر .

— يعد للمشايخ والخلفاء برنامج تدريبى يزودون فيه بالأصول الصحيحة للتصوف الحقيقى ، وبالخطط التوجيهية التى تعينهم على النهوض بواجباتهم وأدائها خير أداء .

ويقوم بوضع البرنامج التدريبى مدير الثقافة الإسلامية مع شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وينفذ هذا البرنامج نخبة من العلماء الفاقهين لمثل هذه الموضوعات ، ويعتمد ذلك كله فضيلة الأستاذ الأكبر .

٣ — توضيح شروط خاصة لمن يتولى أى منصب رئيسى من هذه المناصب من حيث الاستمتاع بالسمعة الطيبة والسلوك المهذب . وتقديم صحيفة السوابق . ويقدم من له نشاط اجتماعى أو دينى ملحوظ . مع مراعاة عدم الاستخلاف بطريق الوراثة ، وكذلك تراعى الحالة المالية لضمان عدم الاستغلال بقدر الإمكان .

٤ — أخذ التعهد على كل من يتولى عملا من أعمال التصوف بمراعاة القواعد الشرعية ، ووضع جزاءات المخالفات التى تصدر عنهم منعاً للمنكرات التى تقع فى الحضرة ، وحلقات الذكر ، وحفلات الموالد .

٥ — وضع خطة لاشتراك المشايخ والمريدين فى الخدمات العامة فى المناطق المقيمين بها والتى يمكنهم الإسهام فيها ، وافتتاح فصول لمحو أمية المريدين وتدريس التصوف الإسلامى الصحيح ، وشغل أوقات الفراغ بالنافع من العلم والعمل ، كالنشاط الدينى ، والاجتماعى ، والصحى وتنمية الوعى القومى فى القرية .

٦ — تحديد اختصاص الجهاز الإدارى على مختلف المستويات المحلية والإقليمية والقومية ، على أن تراعى الأسس الإدارية السليمة مع ضمان الإشراف الدقيق على الأعمال التى يقوم بها رجال الطرق على اختلاف درجاتهم بما يضمن تطبيق ما جاء باللائحة الداخلية للطرق الصوفية ، وما يوضع من مواد للنهوض بها .

ونظراً لأنه يجرى الآن تعديل اللائحة ، ويلزم أن تتضمن الكثير من هذه التوصيات ، نقترح تمثيل الأزهر ، ووزارة الشئون الاجتماعية فى لجنة تعديل اللائحة بعضوين ، أو عرض اللائحة بعد التعديل ليبدى الأزهر رأيه فيها باعتبار أن الأزهر هو الجهة المختصة بالإشراف على مثل هذا حسب ما جاء فى المادة السادسة من قانون الأزهر .

٧ — تمثيل الأزهر فى المجلس الصوفى الأعلى بعضوين يختارهما فضيلة الشيخ الأكبر .

٨ — يوضع نظام للاحتفاظ بحصيلة صناديق النذور ، والصرف منها على الخدمات والمصالح العامة ، وتوزيعها على المستحقين من غير الموظفين .

٩ — بحث إدماج الطرق المتشابهة بعضها فى بعض .

١٠ — استغلال التجمعات للدعاية الدينية والاجتماعيـة ، ونشر الوعى القومى والثقافى والصحى .

١١ — تنفذ التوصيات التى أقرتها اللجنة المشكلة من وزارة الشئون الاجتماعية والأزهر والداخلية ومشيخة الطرق الصوفية والهيئات المعنية بهذا الشأن .

ونظراً لأن كثيراً من العادات السيئة المنتشرة فى الموالد مصدرها عدم الدقة فى رعاية الأصول الشرعية ينبغى أن يضع القائمون بالأمر من أهل الطرق من القواعد التنظيمية ما يضمن عـدم حدوث مخالفات لهذه الأصول . . ،

١٢ — التشدد فى تطبيق النصوص التشريعية المتصلة بجرائم الاحتيال ، وكتابة التمائم ، والعزائم ، ونشر الدجل والشعوذة .

وقد جاء فى قانون العقوبات المصرى مادة ٣٣٦ ما يمكن أن تتخذ أساساً لمعاقبة من يحتال للاستيلاء على الأموال أوغيرها بطرق احتيالية، ونصها:

«ويعاقب بالحبس وبغرامة لا تتجاوز الخمسين جنيها مصرياً أو بإحدى هاتين العقوبتين فقط ، كل من توصل للاستيلاء على نقود ، أو عروض أو سندات دين، أو سندات مخالصة، أو أى متاع منقول، وكان ذلك بالاحتيال لسلب كل ثروة الغير أو بعضها إما باستعمال طرق احتيالية من إيهام الناس بوجود مشروع كاذب ، أو واقعة مزورة، أو إحداث الأمل بحصول ربح وهمى ، أو تسديد المبلغ الذى أخذ بطريق الاحتيال ، أو إيهامهم بوجود سند دين غير صحيح أو سـند مخالصة مزور وإما بالتصرف فى مال ثابت

أو منقول ليس مالكا له ولا له حق التصرف فيه ، وإما باتخاذ اسم كاذب أو صفة غير صحيحة .

أما من شرع فى النصب ، ولم يتمه ، فيعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز سنة ، أو بغرامة لا تتجاوز عشرين جنيهاً مصرياً .

ويجوز جعل الجانى فى حالة العود تحت ملاحظة البوليس مدة سنة على الأقل وسنتين على الأكثر .

١٣ — تأليف رسائل مبسطة لبيان حكم الإسلام فى الموضوعات الآتية ونشرها :

(١) التصوف : معناه — تطوره — رجاله — فلسفته .

(٢) ما معنى الشريعة ، والحقيقة ، وهل بينهما فرق ؟

(٣) من هو الولى ؟ وما هى الكرامة ؟ وما معنى المقام ؟ والحال ؟ والاتحاد ، والحلول ؟

(٤) ما هى الطرق ومن رجالها ؟ ومن هو القطب والغوث والخضر ؟ ومن هم أهل الله؟ وأصحاب الديوان ؟ . . . الخ .

(٥) ما هو الذكر الشرعى وكيفيته ؟

(٦) ما معنى التوسل الصحيح وكيفية الدعاء ؟

(٧) حكم النذور .

(٨) الزيارة الشرعية للأضرحة وحكم السفر إليها .

(٩) الموالد ، حكم إقامتها ، من أنشأها ؟ .

(١٠) أدب دخول المساجد والمكث بها والنوم فيها .

١٤ — على كل هيئة من الهيئات المسئولة مثل : الصحف ، والإذاعة ، والوعاظ ، وأئمة المساجد ، ورجال الإفتاء ، ووزارة الشئون الاجتماعية والداخلية وعلماء الأزهر أن تسهم فى هذا الأمر ، وتقوم بدور إيجابى فى رعايته .

١٥ — مراجعة الكتب التى تتضمن المسائل الصوفية ، ومصادرة ما ينافى التعاليم الدينية منها .

قوة الاقتصاد

- قيمة المال
- كسبه وتحصيله
- الملكية وظيفة اجتماعية
- علاقة المالك بالمال
- الاهتمام بالطبقات الفقيرة

قيمة المال ..

الإسلام ينظر إلى المال على أنه عصب الحياة ، وقوامها ، وضرورة من ضروراتها ، لا تستغنى عنه الأفراد ، ولا الجماعات .

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا »[1] .

وقد سماه الله خيراً .

« وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * »[2] .

أى أن الإنسان يحب المال حباً جماً كما فى قوله :

« وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * »[3] .

وسماه الله فضلا :

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ »[4] . أى اطلبوا المال

وجعله سبحانه زينة .

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »[5] .

---

(١) سورة النساء آية ٥

(٢) سورة العاديات آية ٨ .

(٣) سورة الفجر آية ٢٠ .

(٤) سورة الجمعة آية ١٠ .

(٥) سورة الكهف آية ٤٦

وأضافه إلى نفسه فقال :

« وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ »(١) .

ونوه الله سبحانه وتعالى ، بالثروة الحيوانية فقال :

«وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالاَ تَعْلَمُونَ * »(٢) .

كما نوه بالثروة النباتية فقال :

« وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »(٣) .

وكذلك بالثروة المائية فقال :

« وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(٤) .

---

(١) سورة النور آية ٣٣ .
(٢) سورة النحل آية ٥ — ٨ .
(٣) سورة الانعام آية ١٤١ .
(٤) سورة النحل آية ١٤ .

كسبه وتحصيله ..

وإذا كان المال بهذه المثابة ، وله هذه المكانة الرفيعة ، فإن على الإنسان أن يسعى فى كسبه ، ويجد فى تحصيله بالضرب فى الأرض ، والمشى فى مناكبها . يقول الله سبحانه :

« هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ »[1] .

وعلى المصلين أن ينصرفوا إلى العمل بعد الفراغ من الصلاة .

« فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ »[2] .

وقد تحرج بعض الصحابة من ممارسة التجارة أثناء أداء فريضة الحج ، فأنزل الله عز وجل :

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ »[3] .

والسعى فى الأرض ابتغاء الرزق أحد الأسباب فى تخفيف قيام الليل عن المسلمين فى العهد الأول .

« عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ

---

(١) سورة الملك آية ١٥ . (٢) سورة الجمعة آية ١٠

(٣) سورة البقرة آية ١٩٨ .

فِى الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ »(١) .

ورسول الله يبين أن محبة الله تتحقق للمؤمن الذى يحترف لنفسه ، فيعمل ، ويكتسب . . . كما أن غفرانه سبحانه يمسح أوزاره .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى — صلى الله عليه وسلم قال :

[إن الله يحب المؤمن المحترف](٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[من أمسى كالاً(٣) من عمل يده أمسى مغفوراً له](٤) .

كما يبين أن أفضل أنواع الكسب عمل الرجل بيده . . .

فعن رافع بن خديج قال : قيل يارسول الله : أى الكسب أفضل ؟ قال :

[عمل الرجل بيده . وكل بيع مبروراً](٥) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره ، خير له من أن يسأل أحداً ، فيعطيه أو يمنعه](٦) .

ويقول : [ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده] .

ومن يبذل طاقته ، ويكد ، ويكدح ، فكده وكدحه فى سبيل الله وهو صدقة ما بقى نفعه .

---

(١) سورة المزمل آية ٢٠ .
(٢) رواه الطبرانى والبيهقى
(٣) كالا : متعبا .
(٤) رواه الطبرانى والبيهقى
(٥) البيع المبرور : لا يخالطه غش ولا خيانة ولا لبس . رواه أحمد البزار
(٦) رواه البخارى ومسلم

عن كعب بن عمرة قال : [مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله ؟. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله .

وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان][(١)] .

وعن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

[ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير ، أو إنسان ، إلا كان له به صدقة][(٢)] .

وعنه أيضاً : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[سبع يجرى للعبد أجرهن وهو فى قبره ، وهو بعد موته : من علم علماً ، أو كرى نهرا ، أو حفر بئراً ، أو غرس نخلا ، أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً ، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته][(٣)] .

وكان رسول الله يرشد أصحابه إلى ما يجب عليهم من الاتجاه إلى العمل .

فعن أنس رضي الله عنه : [أن رجلا من الأنصار أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله ، فقال :

أما فى بيتك شيء ؟ قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه من الماء .

---

(١) قال المنذرى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .
(٢) رواه البخارى ومسلم (٣) رواه البزار والبيهقى وأبو نعيم .

قال : ائتني بهما ، فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشترى هذين ؟

قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يزيد على درهم — مرتين أو ثلاثا » .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين . وأعطاهما الأنصارى .

وقال : [اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به . فأتاه به ، فشد فيه رسول الله عوداً بيده ، ثم قال اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوما . ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها طعاما .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة][(١)] .

ومن أبلغ ما ورد فى ذلك ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم :

[من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة ، وسعياً على أهله ، وتعطفاً على جاره ، بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ، ومن طلبها حراما ، مكاثراً بها ، مفاخراً ، لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان] .

والإسلام يشجع على تعمير الأرض ، فهو لذلك يملكها لمن يقوى على تعميرها وإصلاحها . فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

[من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها][(٢)] .

ويقول : [من أحيا مواتاً فهو له] .

---

(١) رواه أبو داود واللفظ له والنسائى والترمذى . وقال حديث حسن .

(٢) رواه البخارى .

ويقول : [التمسوا الرزق من خبايا الأرض] .

ومن حق الحاكم أن يعطى بعض هذه الأرض لمن يحسن القيام عليها تشجيعاً لإحيائها وعمرانها ، فقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم أرضاً مفتوحة ، وفعل أصحابه كذلك ، ويشترط لذلك قدرة المالك على التعمير . كما يشترط أن يقوم بعمارتها ، فقد أقطع الرسول بلالا بن الحارث المزنى وادى العقيق كله ، فلم يستطع عمارته ، ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : يا بلال . إنك استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضاً طويلة عريضة ، فقطعها لك ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يمنع شيئاً يسأله ، وأنت لا تطيق ما فى يديك . فقال : أجل . فقال : فانظر ما قويت عليه منها فأمسكه . وما لم تطق ، وما لم تقو عليه ، فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين . فقال : لا أفعل والله شيئاً أقطعنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال عمر : والله لتفعلن . فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين .

والإسلام كذلك يشجع على التجارة .

فعن أبى سعيد : يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[التاجر الصدوق الأمين مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء][1] .

وقال عثمان لابنه : يا بنى استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال :

رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، وذهاب مروءته . وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به .

قال أبو سليمان الدارانى : ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك ، وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزها ، ثم تعبد .

---

(١) رواه الترمذى وقال حسن

شروط الكسب :

وهكذا يدعو الإسلام إلى الكسب والتحصيل ، سواء أكان ذلك عن طريق الزراعة ، أم الصناعة ، أم التجارة ، أم أى وسيلة من الوسائل المشروعة .

وكل ما شرطه الإسلام فيما يتصل بالكسب شرطان :

الأول : ألا يلهى عن حق الله ، وأن لا يصرف عن النيم الخلقية الصالحة :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ »(١) .

وأثنى على من لم يشغله شىء من ذلك عن الله ، ولا عن طاعته ، فقال :

« رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ »(٢) .

بينما عتب على جماعة تركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الجمعة فانصرفوا إلى تجارة ، حضرت إلى المدينة ، فقال :

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »(٣) .

الثانى : أن يكون الكسب عن طريق مشروع ؛ كى لا يضار الأفراد ، ولا الجماعات ، ولا يخل بالقانون العام .

ومن ثم فقد حرّم الإسلام كل ما فيه ضرر بالفرد ، أو بالمجموع ، أو كان مخلا بالقانون العام للدولة .

فمن ذلك :

(١) سورة المنافقون آية ٩ .
(٢) سورة النور آية ٣٧
(٣) سورة الجمعة آية ١١ .

١ — الربا : لأنه استغلال لجهد الآخرين ، فضلا عن أنه يتنافى مع روح التعاون والتضامن :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ »[(١)].

٢ — الاحتكار : وهو حبس أقوات الناس ، وحاجاتهم الضرورية .

وهو وإن اقتصر نفعه على الأفراد المحتكرين فإنه يضر الجماعة ، ويهدر حرية التجارة والصناعة ، والمحتكر يحدد السعر الذى يشبع مطامعه دون مبالاة بالضرر الواقع على الغير . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[لا يحتكر إلا خاطىء][(٢)].

٣ — القمار والاتجار بالمخدرات : وهذا من شأنه أن يستنفد الطاقات البشرية ، ويقضى على القوى العاملة .

« إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[(٣)].

٤ — تطفيف المكاييل والتلاعب بالموازين :

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ »[(٤)].

(١) سورة البقرة آية ٢٧٨ .
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذى . والخاطىء : الآثم .
(٣) سورة المائدة آية ٩٠ .   (٤) سورة المطففين من آية ١ — ٥

٥ — السرقة :

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١) .

٦ — أكل أموال الناس بالباطل .

« لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ »(٢) .

والباطل يتناول الغصب ، والنهب ، والتدليس ، والغش ، والرشوة .

وذلك كله مناف للخلق الكريم ، وجالب للضرر بالآخرين ، وسبب من أسباب اضطراب الأمن العام ، فضلا عن أنه كسب من غير جهد .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : [من غشنا فليس منا](٣) .

ويقول : [البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا ، وبينا ، بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما ، وكذبا ، محقت بركة بيعهما](٤) .

ويقول : [الراشى والمرتشى فى النار] .

ويقول : [من من اقتطع حق أمرىء مسلم بيمينه ، أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك] .

حفظ المال وتنمية الثروة :

إن الإسلام — كما يبدو — يحرص على كسب المال وتحصيله ، ولا يمنع من أى سبب من أسباب الكسب المشروع ، وهو مع ذلك يوجب المحافظة على المال حتى لا تتبدد الثروة فى غير طائل .

(١) سورة المائدة آية ٣٨ . (٢) سورة النساء آية ٢٩
(٣) رواه مسلم . (٤) رواه البخارى

إن المحافظة على الثروة من الضياع ، باستغلالها ، وتنميتها ، وحمايتها ، لهو واجب إسلامى . إذ أن إضاعة المال توجب أكبر الضرر للأفراد والجماعات .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم . ويكره لكم القيل والقال . وكثرة السؤال . وإضاعة المال] .

ومن أجل حماية الثروة ، وحفظ المال ، شرع الإسلام ما يأتى :

(ا) الحجر على السفهاء الذين لا يضعون المال موضعه ، ولا يحسنون التصرف فيه ، والقيام عليه ، بتثميره وتنميته .

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا »(١) .

(ب) اختبار اليتامى بعد البلوغ قبل تسليمهم أموالهم ، فإن كانوا راشدين أى قادرين على حفظها ، سلمت إليهم ، وإلا منعوا من تسليمها لهم .

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ »(٢) .

(ج) كتابة الدين والرهن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ »(٣) .

---

(١) سورة النساء آية ٥ .
(٢) سورة النساء آية ٦
(٣) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

« وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ »[١].

(د) تحريم الترف والسرف . والدعوة إلى القصد والاعتدال .

« وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ »[٢].

« كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »[٣].

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا »[٤].

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا »[٥].

وقد جاء فى الحديث :

[ما عَالَ[٦] من اقتصد] .

[التدبير نصف المعيشة] .

[إن محمداً وأهله ، أول من يجوعون إذا جاع الناس . وآخر من يشبعون إذا شبع الناس . . .]

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٣

(٢) سورة الاسراء آية ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٤١ .

(٤) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٥) سوره الاسراء آية ٢٩ .

(٦) عال : افتقر .

الملكية وظيفة اجتماعية

الإسلام والملكية الفردية :

يتبين مما تقدم أن الإسلام أقر الملكية الفردية واحترمها ، لأنها تعتبر من الحوافز المنشطة ، فضلا عن أنها فطرية ، وما كان للاسلام أن يتجاهل الفطرة ، أو يتغاضى عن الحوافز المنشطة ، وهو يرى أن المال قوام الحياة .

وهذا يتمشى مع منطق الإسلام الذى يعطى كل ذى حق حقه ، ومن العدالة أن يملك العامل ثمرة كده ، ونتاج كدحه وسعيه . .

إلا أن الإسلام من جانب آخر يتقى شرور الملكية الفردية ، وتكديس الثروة فى أيدى الأقلية ، ويجعل الملكية وظيفة اجتماعية ، فجعل فيها حقوقاً من جهة ، وقضى على أضرارها بتحويلها إلى ملكيات صغيرة من جهة أخرى ، عن طريق الميراث والهبة ، والوصية ، وفى الوقت نفسه قرب بين الطبقات ، وقلل الفوارق الاجتماعية التى كانت ولا تزال مثار نزاع واضطراب فى المجتمع البشرى .

الحقوق الواجبة فى المال :

فمن هذه الحقوق ما يجب للمالك نفسه ، ومنها ما يجب فى ماله لغيره ، ومنها ما يجب عليه نحو أمته .

حق المالك فى مال نفسه :

للمالك حق فى ماله ، فيبدأ بالانفاق منه على نفسه ، وعلى من تلزمه نفقته من أبنائه ، وزوجته ، وأقاربه .

وتشمل النفقة ، الغذاء ، والكساء ، والسكنى ، والتربية والتعليم ، والعلاج ، وكل ما هو من ضروريات المعيشة ..

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله ، عليه وسلم ، قال يوماً لأصحابه : [تصدقوا ، فقال رجل يا رسول الله : عندى دينار ، قال : أنفقه على نفسك . قال : إن عندي آخر . قال : أنفقه على زوجتك . قال : إن عندى آخر . قال : أنفقه على ولدك . قال : إن عندى آخر . قال : أنفقه على خادمك . قال : عندى آخر . قال : أنت أبصر به] .

وكل ما اشترط الإسلام في هذه النفقة الإعتدال ، والقصد ، فلا يسرف ، ولا يبخل ، فإن كلا منهما ضار .

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا . وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * »(١) .

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً * »(٢) .

فالله سبحانه ينهى عن البخل ، ويصور حال البخيل بحال من شدت يده إلى عنقه ، وربطت به ، فلا تنبسط بخير . . . وينهى عن الإسراف ، ويصور حال المسرف بحال من بسطت يده ، فلا تمسك شيئاً .

والبخل يعرض البخيل إلى ذم الناس ، ومقتهم ، والإسراف يعرض المسرف إلى الندم والحسرة .

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٧ (٢) سورة الاسراء آية ٢٩ .

حق الغير :

وحق الغير فى المـال يتفرع إلى عدة حقوق .

(أ) الحق الأول ، حق الزكاة وهـذا الحق مفروض فى أصناف معينة . وقد جعل الله هـذا الحق مواساة للفقراء ، ومعاونة لذوى الحاجات ، وتقوية لأواصر المودة بين الأغنياء والفقراء ، وتقريبا للفوارق بين الطبقات ، ومعالجة لأخطار الفقر الذى يعتبر أخطر شىء يهدد كيان الأمة .

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »(١) .

أى أن الزكاة تطهر القلوب ، وتزكى النفوس .

فتطهر نفوس الأغنياء من الشح والبخل ، ونفوس الفقراء من البغضاء ، والحقد ، والكراهية .

(ب) ما يجب على الإنسان نحو إخوانه ، وأصدقائه ، وجيرانه ، وضيوفه مما توجبه المروءة ، وتقتضيه الأريحية ، ويستحق به أن يعد فى الكرام الأسخياء .

حق الجوار :

روى عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[من أغلق بابه ، دون جاره ، مخافة على أهله ، وماله ، فليس ذلك بمؤمن ، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه .

أتدرى ما حق الجار ؟ إذا استعانك أعنته ، وإذا استقرضك أقرضته ، وإذا افتقر عدت عليه ، وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣

مصيبة عزيته . وإذا مات ، اتبعت جنازته ، ولا تستطل عليه بالبنيان ، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها ! وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يدخل بها ولدك ليغيظ بها ولده] . (١)

وعن مجاهد : [أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . ذبحت له شاة في أهله . فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ أهديتم لجارنا اليهودى ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه] (٢)

عن أنس بن مالك رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ما آمن بي من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جنبه ، وهو يعلم] (٣) .

حق الضيافة :

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال :

[دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألم أخبر أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار ؟ قلت : بلى . قال : فلا تفعل ، قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينيك عليك حقاً . وإن لزورك (٤) عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً] (٥) .

وعن أبي شريح بن خويلد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، والضيافة ثلاثة أيام . فما كان بعد ذلك فهو صدقة . ولا يحل له أن يثوى حتى يحرجه] (٦) .

---

(١) رواه الخرائطى .
(٢) رواه أبو داود والترمذى واللفظ له وقال حديث حسن غريب
(٣) رواه الطبرانى والبزار واسناده حسن .
(٤) قال المنذرى : أى وإن لزوارك وأضيافك عليك حقا . يقال للزائر زور سواء فيه الواحد والجمع .
(٥) رواه البخارى واللفظ له ومسلم وغيرهما
(٦) رواه البخارى ومالك ومسلم وأبو داود .

قال المنذرى : قال الترمذى : ومعنى « لا يثوى » لا يقيم حتى يشتد على صاحب المنزل ، والحرج الضيق . . وقال الخطابى : معناه — لا يحل للضيف أن يقيم عنده بعد ثلاثة أيام من غير استدعاء منه حتى يضيق فيبطل أجره . وقال المنذرى : وللعلماء فى هذا الحديث تأويلان : أحدهما : أنه يعطيه ما يجوز به ويكفيه فى يوم وليلة إذا اجتاز به . وثلاثة أيام إذا قصده . . والثانى يعطيه ما يكفيه يوماً وليلة ، يستقبلهما بعد ضيافته .

وعن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
[الضيافة ثلاثة أيام . فما زاد فهو صدقة ، وكل معروف صدقة] (١) .

ومن حق الضيف إذا منع قراه أن يأخذه رغم أنف المضيف .

فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[أيما ضيف نزل بقوم ، فأصبح الضيف محروماً ، فله أن يأخذ بقدر قراه ولا حرج عليه] (٢) .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

[السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل] (٣) .

حق الدولة :

وثمة حقوق أخرى على المالك فى ماله نحو أمته ؛ كالجهاد ، والدفاع بالمال عنها ، وكالمساهمة بالمال فى المصالح العامة ، والمشروعات النافعة التى هى قوام

(١) رواه البزازى ورواه ثقاة

(٢) رواه أحمد قال الحافظ المنذرى ورواته ثقاة وقال رواه الحاكم وهو صحيح الاسناد .

(٣) قال المنذرى : رواه الترمذى من حديث سعد بن محمد الوراق عن يحيى بن سعيد عن الأعرج عن أبى هريرة :

أمر الأمة وصلاح حالها ؛ من تشييد للمدارس ، وبناء للمساجد ، وإقامة للمستشفيات ، وغير ذلك مما يعود نفعه على الأفراد والجماعات . . .

« انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * »[١] .

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ »[٢] .

(١) سورة التوبة آية ٤١ (٢) سورة التوبة آية ١١١

علاقة المالك بالمال

المال فى حقيقة أمره ليس ملكا خالصاً لمالكه ، وإنما هو ملك لله

« وَآتُوهُم مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِى آتَاكُمْ »[1] .

ويد المالك يد وديعة ، استودعها الله إياه .

« وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ »[2] .

وعلى الإنسان أن يضعه مواضعه ، وينفقه فى الوجوه التى شرعها الله ، فيأخذ منه ضروراته وحاجاته ، ويوزع الفضل منه على من هم أحق به من الضعفاء ، والعجزة ، والمساكين .

المال فتنة واختبار :

فالمال فتنة ، وإنفاق المال فى وجوهه المشروعة نجاح فى الاختبار ؛ إذ أن المال المودع لدى المالك فتنة .

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ * »[3] .

أى اختبار وامتحان .

مساواة الغنى والفقير فى الابتلاء :

والله سبحانه وتعالى يبتلى بالغنى ؛ ليستخرج من الغنى الشكر ، كما يبتلى بالفقر ؛ ليستخرج من الفقير الصبر .

---

(١) سورة النور آية ٣٣ (٢) سورة الحديد آية ٧ .
(٣) سورة الأنفال آية ٢٨

فليس الغنى مظهر التكريم من الله ، ولا موضع الرضا منه ، كما أن الفقر ليس مظهر السخط ، ولا موضع الإهانة :

« فَأَمَّا الإنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا »(١) .

وإذا شكر الغنى ، وصبر الفقير ، نجح كل منهما فى الاختبار ، وحظى برضا الله ، وفاز بالزلفى لديه ، وهما فى المنزلة سواء . إذ أن كلا منهما تعبد لله حسب حالته ، وقيام بواجبه .

وتوجيه القرآن نفوس الأغنياء والفقراء ، إلى هذا المعنى ، من شأنه أن يحفز الغنى إلى العطاء ، والبذل ، ويحفظ نفس الفقير من التدلى والتسفل .

طغيان المال :

والمال سيطرة على النفوس ؛ إذ أنها بطبيعتها تحبه ، وتعشقه ؛ لأنه هو الوسيلة إلى تحقيق لذائذها ، وشهواتها .

« وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * »(٢) .

« وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا * »(٣) .

وهذا الحب كثيراً ما يؤدى إلى الطغيان ، وتجاوز حدود ما أمر الله .

ففى الحديث : [حبك الشئ يعمى ويصم] .

(١) سورة الفجر آية ١٥ ، ١٦ ، ١٧
(٢) سورة العاديات آية ٨ — الخير : المال الكثير والضمير فى أنه يرجع للإنسان .
(٣) سورة الفجر آية ٢٠ .

« وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ ، وَلَـٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ * »(١) .

« كَلَّا ، إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى * »(٢) .

وإذا كان المال وسيلة إلى الطغيان ، وتجاوز حدود ما أمر الله به ، كان ذلك مانعاً للمؤمن من أن يحرص على المال الحرص الذى يطغيه .

فما أتاه منه لا يفرح به ، وما فاته منه لا يأسى عليه ، وبهذا تقل الرغبة فيه ، فلا يبخل به غنى ، ولا يتطلع إلى الكثرة منه فقير .

المال كقيمة :

والمال وإن كانت له قيمة مادية ، إلا أنه ليست له المنزلة الرفيعة ، وهناك قيم أخرى أسمى ، وأجل منه .

فالمال لا تكمل به السعادة ، ولا تشرف به نفس ، ولا مما يتقرب به إلى الله إلا من حيث الجود به ، وإنفاقه فى وجوهه المشروعة ؛ وإنما يسعد الإنسان ، وتشرف نفسه ، ويعلو قدره ، بأشياء أخرى وراء المال ؛ وهى القيم الصالحة ، والمثل العليا .

« الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا * »(٣) .

فالباقيات الصالحات : هى التى يجب أن تبتغى ، وهى فى متناول الأغنياء

---

(١) سورة الشورى آية ٢٧
(٢) سورة العلق آية ٦ ، ٧ .
(٣) سورة الكهف آية ٤٦

والفقراء ، إذ أن أبوابها مفتحة لكل طالب ، وطرقها مسلوكة لكل راغب ، وليس هناك حجاب يصد عنها ، أو عوائق تحول دونها .

فإذا أحرز الأغنياء الثراء والغنى ، فإن الفقراء يمكن أن يحرزوا من القيم الأخرى ما هو أعظم خطراً ، وأبقى أثراً من النعم الظاهرة ، والمتاع المادى .

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * » .

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ * »(١) .

« وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ، فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ، وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * »(٢) .

وفتح أبواب القيم والمثل للناس جميعاً : غنيهم ، وفقيرهم . يكسب النفس قناعة ونزاهة ، بما تجده من عوض عما فاتها ، وبديل عما هو من عرض الحياة . .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

(٢) سورة سبأ آية ٣٧

وبهذا يتحقق الغنى الحقيقى للنفس ، وهذا هو الغنى الذى يبتغيه الإسلام . . .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس] .

وهذا هو المثل الأعلى فى السمو . . .

المؤمنون إخوة :

والمؤمنون جميعاً سواء أكانوا أغنياء أم فقراء ، هم كما قال القرآن :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(١) .

ومعنى هذا الإخاء أن يواسى القوى الضعيف ، ويرحم الغنى الفقير ، ويعين القادر العاجز ، ولا يفهم من الإخاء إلا هذا المعنى ، وإذا تجرد منه كانت القطيعة ، وكان لفظ الإخاء لفظاً لا مدلول له ، ولا مفهوم وراءه .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ »(٢) .

فجعل من صفات المؤمنين أنهم أذلة على المؤمنين ؛ أى أن بعضهم يعطف على البعض الآخر ، فالذلة متضمنة معنى العطف والتراحم ، ولهذا عديت بلفظ على . فهذه الذلة ليست من الذل ، وإنما هى حنان وشفقة . ومعنى الذلة هنا ، هو معنى الإخاء فى الآية السابقة ، وهو معنى التراحم فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجرات آية ١٥ (٢) سورة المائدة [illegible]

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »(١) .

فالرحمة ، والتعاطف ، والأخوة ، والذلة ، كلها تأتى بمعنى واحد .

وإذا كان الإخاء قد انتظم جماعة المؤمنين ، فما ينبغى أن يجحد الغنى حق الفقير ، أو يدعه للبؤس ، والفاقة ، والعوز ، ومن ثم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ليس المؤمن الذى يبيت شبعان ، وجاره جائع ، وهو يعلم] .

نعم فليس من الإيمان فى شىء ، لأن الإيمان قد تخلفت عنه آثاره ، وإذا تخلفت عنه آثاره كان كالشجرة التى لا تثمر ثمراً ، ولا تمد ظلا ، فهى بالقطع أولى منها بالبقاء ...

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩ .

الاهتمام بالطبقات الفقيرة

القرآن يذكر الفقراء فى كل موضع ،هو مظنة الـكسب ، والمال ، والبر ، والخير .
وغاية الإسلام من ذلك أن يقضى على الفقر ، ويستأصل شأفته ، فلا يبقى فقير مضيّع ، ولا محتاج لا كفاية له . فيذكرهم وهو يتحدث عن الزكاة :

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ »(١) .

ويذكرهم وهو يتحدث عن غنائم الحروب .

« وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ »(٢) .

ويذكرهم وهو يقسم الفىء :

« مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ »(٣) .

ويذكرهم وهو يأمر بعبادته .

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ،

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠
(٢) سورة الأنفال آية ٤١
(٣) سورة الحشر آية ٧

وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »(١) .

ويذكرهم وهو يتحدث عن البر :

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ . . . »(٢) .

ولا ينساهم ، وهو يأمر بأداء حق الأقرباء :

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ »(٣) .

ويتحدث عن صفات الأبرار فيذكر أنهم كانوا يبرون هذا الفريق من الناس :

. . . « وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * »(٤) .

ويجعل لهؤلاء حقوقاً فى زكاة الفطر فى عيد الفطر ، حتى يشعروا بالعيد ، وكذلك حينما يأتى عيد الأضحى جعل لهم نصيباً فى الأضحية ، وفيما يهدى إلى الكعبة :

« فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * »(٥) .

---

(١) سورة النساء آية ٣٦
(٢) سورة البقرة آية ١٧٧
(٣) سورة الاسراء من الآية ٢٦
(٤) سورة الانسان آية ٨
(٥) سورة الحج آية ٢٨

وفى كفارة اليمين :

« فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ »(١) .

وفى كفارة الظهار :

« فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا »(٢) .

وفى الفدية فى شهر رمضان :

« وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ »(٣) .

وفى الإحصار فى الحج ، الفدية :

« فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ »(٤) .

وكذلك فى ارتكاب محظور من محظورات الحج :

« فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ »(٥) .

بل إن العناية بالمساكين بلغت إلى حد أن أرسل الله ولياً من أوليائه ليدفع عنهم ظلم الملك الغاصب :

« أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ . .

(١) سورة المائدة آية ٨٩
(٢) سورة المجادلة آية ٥
(٣) سورة البقرة آية ١٨٤
(٤) سورة البقرة آية ١٩٦
(٥) سورة البقرة آية ١٩٦

فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً »(١) .

وذكر لنا أنه دمر على الذين فكروا فى هضم حقوق هؤلاء :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة — إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم * فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون * »(٢)

وغاية الإسلام من هذا كله أن يطهر المجتمع من الفقر الذى كاد أن يكون كفرا ، وأن يحفظ للفقراء قواهم البدنية بهذه الرعاية والكفالة ؛ فإن لهم أفواهاً ومعًى وأجساداً ، ولهم قلوب ومشاعر وعواطف ، ولهم كرامة ، ولا بد من أن تصان هذه الأجسام ، وأن تراعى هذه القلوب والمشاعر ، وأن تحفظ هذه الكرامات .

---

(١) سورة الكهف آية ٧٩ (٢) سورة القلم آية ١٧ — ٣٢ .

وما ينبغي أن تهدر كرامة فقير ، والفقر هو أعظم مهدر للكرامة ، ولا أن تضعف جسومهم ، والفقر هو أعظم معول لهدم الجسم ، ولا أن ينظر إلى الفقراء نظرة ازدراء واحتقار ، فقد يكون لهم من الملكات والقدرات ، ومن القوى العقلية ما يستطيعون بها أن يصلوا إلى القمة من السيادة ، والقيادة ، والعلم ، والعمل .

وكل أمة لا تخلو من عجزة ، أو ضعفاء ، أو فقراء ، ولأنهم يمثلون كثيراً من هذا المجتمع ، وأن رعايتهم من الضروريات . . .

الدعوة إلى الإنفاق :

ولقد جاء الإسلام يذكى هذا الروح ، ويدعو إلى البذل ، ويحض على الإنفاق في أسلوب يستهوى الأفئدة ، ويبعث في النفس الأريحية ، ويثير فيها عواطف الخير والبر ، ويوقظ بها مشاعر الرحمة والإحسان .

يقول الله تعالى :

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * »[1] .

فهذه الآية تقرر أن الإنسان حينما يعطى المعوزين ، ويمنح المساكين إنما يقرض الله ، ويتعامل معه ، وأن الله سبحانه يرد هذا القرض أضعافاً مضاعفة ، بما يمنحه من بركة ونماء .

وفي آية أخرى يقرر الله سبحانه مدى هذه البركة ، ومدى هذا النماء ، بما يضرب به من مثل ، فيقول :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٥

أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * »(١) .

وإلى هذا يشير حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

[من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل] .

على أن الأموال وديعة استودعها الله يد الأغنياء ، وجعلهم خلفاء عنه فيها ليسدوا بها حاجات المحتاجين ، ويصونوا بها كرامات البائسين ، وينفقوها في المنافع العامة ، والمصالح التي تصل بالأمة إلى عيش هنيء ، ومستوى من الحياة رفيع .

يقول الله سبحانه ، مشيراً إلى هذه الحقيقة :

وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ »(٢) .

وللمال سلطان على النفوس ، وسيطرة على القلوب ، وهذه السيطرة من شأنها أن تدفع الإنسان إلى اقتحام الكثير من الموبقات ، وارتكاب الرذائل من الصفات ، مثل البخل ، والحرص ، والطمع ، والشراهة ، والدناءة ، والأثرة ، والأنانية وغير ذلك مما يفسد فطرة الإنسان ، ويخرج بها عن طبيعتها الخيرية ، فأراد الله سبحانه أن يعالج هذا المرض بتخفيف هذا الحب عن طريق التمرين على بذل المال حتى لا يبقى له هذا السلطان ، ولا هذه السيطرة ، فقال :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦١ (٢) سورة الحديد آية ٧ و ١٠ .

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * »(١) .

وقال :

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »(٢) .

والذين يقدمون معاونتهم للناس ، ويمدون إليهم يد المساعدة ينالهم من بركات الله ، ودعوات الملائكة مالا يقع تحت التقدير والحسبان .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً . ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفاً] .

ويقول : [خير الناس أنفعهم للناس] .

والمحسنون هم دائماً فى رعاية الله وعافيته ، فيحفظهم من السوء ، ويقيهم طوارق الأحداث .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة فى خفاء تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف] .

وعلى كل إنسان أن يستبق الخيرات ، ويصنع المعروف ما وسعه . . .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[على كل مسلم صدقة . قالوا : يا نبى الله فمن لم يجد ؟ قال : يعمل بيده فينفع

(١) سورة آل عمران آية ٩٢ . (٢) سورة التوبة آية ١٠٣

نفسه ويتصدق . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : فليعمل بالمعروف ، وليمسك عن الشر ، فإنها له صدقة] . . .

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [على كل نفس فى كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه . قلت يا رسول الله . . من أين نتصدق ، وليس لنا أموال ؟ قال : من أبواب الصدقة التكبير ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وأستغفر الله ، وتأمر بالمعروف ، وتنه عن المنكر ، وتعزل الشوك عن طريق الناس ، والعظم ، والحجر ، وتهدى الأعمى ، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه ، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها ، وتسعى بشد ساقيك إلى اللهفان المستغيث ، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف ، كل ذلك من أبواب الصدقة على نفسك] .

وفى الحديث القدسى :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك . وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده . أما لو عدته لوجدتنى عنده ... يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . قال يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال يا رب ، وكيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى » . . .

واجب الدولة نحو الفقراء :

والدولة بعد هذا كله مسئولة عن حماية هؤلاء ، ولهذا نجد أبا بكر الصديق رضى الله عنه قاتل مانعى الزكاة . قائلا قولته المشهورة .

« والله لو منعني الناس عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه . . .

والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال »

وقال ابن حزم : وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات بهم . ولا في سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة — برهان ذلك قوله تعالى :

« وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ »[١]

وقوله تعالى :

« وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »[٢] .

فأوجب الله تعالى حق المساكين ، وابن السبيل ، وما ملكت اليمين ، من ذوى القربى وافترض الإحسان إلى الأبوين ، وذى القربى ، والمساكين ، والجار ، وما ملكت اليمين .

والإحسان يقتضى كل ما ذكرنا ، ومنعه إساءة بلا شك : وقال تعالى :

« مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا : لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * »[٣] .

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٦ (٢) سورة النساء آية ٣٦

(٣) سورة المدثر آية ٤٢ — ٤٤

فقرن الله تعالى إطعام المسكين بوجوب الصلاة .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق كثيرة فى غاية الصحة . أنه قال : [من لا يرحم الناس لا يرحمه الله] .

ومن كان على فضـلة ورأى المسلم أخاه جائعاً عرياناً ضائعاً ، فلم يغثه فما رحمه بلا شك .

وعن عثمان النهدى : أن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق حدثه : أن أصحاب الصفة ، كانوا أناساً فقراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال :

[من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه] .

ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [من كان معه فضل ظهر ، فليعد به على من لا ظهر له ، ومن له فضل من زاد فليعد على من لا زاد له . قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى الفضل] .

وهذا إجماع الصحابة رضى الله عنهم . يخبر بذلك أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وبكل ما فى هذا الخبر نقول :

ومن طريق أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : [أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العانى] .

والنصوص من القرآن والأحاديث الصحاح فى هذا كثيرة جداً .

وقال عمر رضى الله عنه : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ، فقسمتها على فقراء المهاجرين » .

وهذا إسناد فى غاية الصحة والجلالة .

قال على رضى الله عنه : « إن الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء . وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال :

« فى المال ، حق سوى الزكاة » .

وعن عائشة أم المؤمنين ، والحسن بن على ، وابن عمر رضى الله عنهم قالوا كلهم لمن سألهم :

« إن كنت تسأل فى دم موجع ، أو غرم مقظع ، أو فقر مدقع ، فقد وجب حقك »

وصح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلثمائة من الصحابة رضى الله عنهم : أن زادهم فنى ، فأمرهم أبو عبيدة ، فجمعوا أزوارهم فى مزودين وجعل يقوتهم إياها على السواء .

فهذا إجماع مقطوع من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا مخالف لهم منهم . . .

وصح عن الشعبى وعن مجاهد وطاوس وغيرهم كلهم يقول : فى المال حق سوى الزكاة . . .

ثم قال : ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير ، وهو يجد طعاماً فيه فضل من صاحبه المسلم ، أو الذمى ، لأنه يجب فرضاً على صاحب الطعام إطعام

الجائع . فإذا كان ذلك كذلك ؛ فليس بمضطر إلى الميتة ، ولا إلى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل على ذلك ، فإن قتل فعلى قاتله القود [١] .

وإن قُتل المانع فإلى لعنة الله ، لأنه منع حقاً ، وهو من الطائفة الباغية . . .

قال تعالى :

« فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ » [٢] .

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق . . .

وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة . انتهى . .

إن الإسلام بهذه التعاليم قد سبق المذاهب الحديثة سبقاً بعيداً وأنها فى جانبه كالشمعة المضطربة ، أمام الضوء الباهر ، والشمس الهادية .

وما يستوى وحى من الله مرسل وقافية فى العالمين شرود

---

(١) أى يقتل به . (٢) سورة الحجرات آية ٩ .

قوة التماسك الاجتماعى

* الحرية
* العدالة
* العمل
* الطيبات من الرزق
* التشريع
* الروابط الأدبية
* الحكم

الحُرّيَة .

الحرية فطرة فطر الله الناس عليها . . .

وهى حق طبيعى للانسان . . .

وهى ضرورة لكل فرد — كضرورة الهواء للرئتين ، والضوء للعينين ، والروح للجسد .

وهى الأغنية التى تغنى بها الشعراء والأدباء . .

وهى الأمل الحلو الذى استعذب العذاب فى سبيلها المصلحون والأحرار .

وهى أحد الأصول التى تحلى بها الدساتير لكل دولة ؛ لتوقف سيادة الأفراد ، وسيادة الأمة عليها . .

وبقدر ما تصون الحكومات هذا الحق ، من اللعب به ، بقدر ما يكون لها من منزلة فى نفوس الشعب . .

ومن ثم فقد جاء الإسلام ليطلق حريات الناس ، ويحميها من العبث ، سواء فى ذلك الحرية الدينية ، والسياسية ، والفكرية ، وحرية التصرف ، والعمل ، والمأوى ، وغير ذلك من الحريات ، التى تعد مقوماً من مقومات الشخصية .

ولنلق نظرة على كل نوع من هذه الأنواع ، فيما يلى .

الحرية الدينية :

تتمثل الحرية الدينية فيما يأتى :

أولا : عدم إكراه أحد على ترك دينه ، أو إكراهه على عقيدة معينة . فالقاعدة العامة للاجانب عنا . [لهم ما لنا وعليهم ما علينا] .

« لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ » (١) .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » (٢) .

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (٣) .

« فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * » (٤) .

ثانياً : من حق أهل الكتاب أن يمارسوا شعائر دينهم ، فلا تهدم لهم كنيسة ، ولا يكسر لهم صليب . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[اتركوهم وما يدينون] .

بل من حق زوجة المسلم اليهودية ، أو النصرانية ، أن تذهب إلى الكنيسة ، أو إلى المعبد ، ولا حق لزوجها فى منعها من ذلك .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ (٢) سورة يونس آية ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ .
(٣) سورة الكهف آية ٢٩ (٤) سورة آل عمران آية ٢٠ .

ثالثا : أباح لهم الإسلام ما أباحه لهم دينهم من الطعام وغيره ، فلا يقتل لهم خنزير ، ولا تراق لهم خمر ، ما دام ذلك جائزاً عندهم . .

والإسلام بهذا أوسع عليهم أكثر من توسعته على المسلمين الذين حرم عليهم الخمر والخنزير .

رابعاً : لهم الحرية فى قضايا الزواج ، والطلاق ، والنفقة ، ولهم أن يتصرفوا كما يشاءون فيها دون أن توضع لهم قيود أو سدود .

خامساً : حمى الإسلام كرامتهم ، وصان حقوقهم ، وجعل لهم حق الحرية فى الجدل والمناقشة ، فى حدود العقل والمنطق ، مع التزام الأدب ، والبعد عن الخشونة ، والعنف .

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * »[١] .

« ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[٢] .

حرية التفكير والتعبير :

لقد دعا الإسلام إلى التفكير ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ؛ إذ أن التفكير هو وظيفة العقل . وبالعقل تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات ، فإذا تخلى العقل عن وظيفته ، فقد تخلى الإنسان عن أخص خصائصه ، ولم يعد له دور فى تقدم البشر ، ورقى الحياة .

(١) سورة العنكبوت آية ٤٦ (٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

لقد أجمع العقلاء على أن التفكير هو سر تقدم البشر ، وأن الجمود والتقليد هما سبب انطفاء جذوة العقل ، وارتكاس الإنسان فى الضلال ، وهبوطه إلى مستوى التأخر ، والانحطاط .

ولهذا جاء الإسلام ليطلق العقل من أساره ، ويضع عنه الأغلال التى عطلته زمناً طويلا .

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ »(١) .

« أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَىْءٍ »(٢) .

وليس هناك حدود تحد من نشاط العقل وتفكيره :

« كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »(٣) .

ولم يمنع الإسلام التفكير إلا فى ذات الله ، فإن ذات الله لا تحيط بها الفكرة .

والعقيدة أساسها التفكير ، والنظر ، ولا بد أن تكون عن يقين ، واقتناع . لا عن تقليد ، واتباع للآباء . ولذلك كان إيمان المقلد مشكوكا فيه .

وحرية التفكير تتناول حرية التعبير ، سواء أكان التعبير باللسان ، أم بالقلم . كما تتناول حرية الرأى ، والجهر بالحق .

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم العهد على أصحابه أن يقولوا الحق ولو كان مراً ، وألا يخافوا فى الحق لومة لائم . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

---

(١) سورة يونس آية ١٠١ (٢) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(٣) سورة البقرة آية ٢١٩ .

[الساكت عن الحق شيطان أخرس] .

ولقد كانت المرأة تملك من حرية الرأى ما تخطىء به أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهو من هو ! !

لقد أراد أن ينهى عن الغلو فى المهور ، فقالت له امرأة : يا أمير المؤمنين الله يقول :

«وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ ، وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا ، فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا . . أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا »(1) .

فقال : « كل الناس أعلم منك يا عمر حتى النساء أصابت المرأة وأخطأ عمر » ! !

ويدخل فى حرية التفكير ، حرية الصحافة ، والخطابة ، وحرية اعتقاد ما يراه الإنسان من ظواهر الفلك ، والطبيعة ، والحيوان ، والإنسان .

فالإسلام لم يفرض عقيدة خاصة ، أو يوجب نظرية علمية على العقل ، فلكل إنسان الحق فى النظر فى الكون ، واستعمال الأدوات التى توصل إلى السنن ، والقوانين التى تخضع لها الظواهر الكونية .

ولقد كان من آثار حرية الفكر هذه الذخائر الثقافية التى تزخر بها المكتبة الإسلامية فى الفلسفة ، والمنطق ، والتوحيد ، والأصول ، والفقه ، والتصوف ، وعلوم الطب ، والكيمياء ، والطبيعة ، والهندسة ، والرياضة ، وغير ذلك مما كان سبباً مباشراً فى إقامة النهضة الأوربية المعاصرة .

---

(١) سورة النساء آية ٢٠

إن الشيء الوحيد الذى حرمه الإسلام، هو الدعوة إلى إضعاف الدين ، والخلق ، أو الترويج للالحاد ، والزندقة .

ولا يشك عاقل فى أن أى دعوة لضعف التدين ، أو انحطاط الخلق ، أو ترويج الكفر ، والإلحاد ، والزندقة — دعوة خبيثة يجب مصادرتها ، والحجر عليها .

الحرية السياسية :

تتضمن الحرية السياسية ما يأتى :

١ — المشاركة فى الحكم .بالترشيح ، أو بالتصويت فى الانتخابات ، أو الاستفتاء .

٢ — مراقبة أعمال الحكام ، ونقدها، وإبداء الرأى فيها .

أما المشاركة فى الحكم بالترشيح ، أو التصويت ، فهو حق مباح لكل مسلم ، فمن حق أى فرد من المسلمين أن يرشح نفسه ،متى توفرت فيه الشروط الضرورية للترشيح ، ومن حقه كذلك أن يعطى صوته لمن يرى تقديمه ، وأهليته ، لإسناد منصب من مناصب الحكم إليه .

إن الإسلام يوجب اختيار الحاكم عن طريق البيعة ، بواسطة مبايعة أهل الحل والعقد الممثلين للأمة ، أو بواسطة انتخاب الأمة له ، أو بواسطة الاستفتاء العام ، فهو يستمد سلطاته من الأمة . وهو وكيل عنها فى حراسة الدين وسياسة الدنيا .

ولا يشترط فى الحاكم أن يكون من بيت خاص ، ولا من أسرة معينة ، ولا يشترط فيه شيء آخر سوى الكفاءة ، والقدرة على احتمال تكاليف الحكم ، والاضطلاع بأعبائه .

ومتى تهيأت الكفاءة ، والقدرة لأى فرد ، فله أن يتقدم بترشيح نفسه ، ومن

حق أى فرد أن يقبل ترشيحه ، أو يعارضه ، ولكن متى وقع الاختيار على شخص ، وتمت له البيعة ، فلا حق لأحد بعد ذلك فى مخالفة ما انتهى إليه الرأى .

ولا يحل بعد مبايعته أن يبرم أمراً إلا إذا رجع فيه للأمة ، وأخذ رأيها فيه ، وأخذ موافقتها عليه ؛ لأنه وكيل عنها .

والوكالة تقتضى أن يكون تصرف الوكيل تعبيراً عن إرادة الموكل ، ومظهراً لها . فإذا تصرف تصرفاً لا يعبر عن الإرادة الصحيحة ، كان التصرف باطلا ، لايلزم أحداً . . والمثل الأعلى فى الحكم هو الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهو يقرأ ما أوحاه الله إليه :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ »(1) .

« إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ »(2) .

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ »(3) .

والرسول والحاكم يشتركان فى الحكم بما أنزل الله ، وفى الرجوع إلى الأمة فيما لا نص فيه . فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستبد بشئون الأمة ؛ وكان يستشير ، ويأخذ بما أجمع عليه أصحابه ، ولو خالف رأيه .

ويفترقان فى أن الله يختار الرسول ، ويوحى إليه ، ويعصمه من الخطأ .

أما الحاكم فإن الأمة هى التى تتولى اختياره ، ولا يوحى إليه ، ولا عصمة له من الخطأ .

---

(1) سورة الكهف آية ١١٠ . (2) سورة الغاشية آية ٢١ ، ٢٢ .
(3) سورة ق آية ٤٥ .

وأما حق إبداء الرأى ، وحرية النقد ، ومراقبة أعمال السلطة التنفيذية ، فهذا أمر مقرر فى الإسلام ، وحق لكل فرد .

ففى خطبة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قال :

« أيها الناس إنى وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« اتق الله يا أمير المؤمنين ، فاعترضه آخر ، وقال له : تقول لأمير المؤمنين اتق الله . فقال عمر رضى الله عنه :

« دعه فليقلها . فإنه لا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم » ! ! .

وخطب رضى الله عنه يوما فقال :

« أيها الناس ، من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقوّمه ، فقام إليه أحد الأعراب ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين لو وجدنا فيك اعوجاجاً ، لقومناه بسيوفنا هذه ، فقال رضى الله عنه :

« الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه إذا اعوج » .

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه :

« أمرى لأمركم تبع » .

وأى حرية أوسع ، من ترك الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، المنافقين دون عقوبة ، وهم يشغبون عليه ، فكان يقابل أذاهم بالعفو ، والصفح الجميل .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

[لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ناساً فى القسمة ؛ فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ؛ وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب ، وآثرهم يومئذ فى القسمة . . فقال رجل : والله إن هذه قسمة ماعدل فيها ؛ وما أريد فيها وجهُ الله . فقلت: والله لأخبرن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ فأتيته ، فأخبرته بما قال ، فتغير وجهه حتى كان كالصرف[1] ثم قال : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال : يرحم الله موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » . . فقلت : لا جرم ،لا أرفع إليه بعدها حديثاً][2] .

وعن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال :

قدم عيينة بن حصين ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، رضى الله عنه . وكان القراء أصحاب مجلس عمر ، رضى الله عنه ومشاورته ، كهولا كانوا ، أو شباناً . فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخى لك وجه عند هذا الامير ، فاستأذن لى عليه ، فاستأذن ، فأذن له عمر ، فلما دخل قال : هى يا ابن الخطاب : فو الله ماتعطينا الجزل ، ولا تحكم فينا بالعدل ، فغضب عمر رضى الله عنه حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ، صلى الله عليه وسلم :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »[3] .

وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر ، حين تلاها ، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى[4] .

---

(١) الصرف : هو بكسر الصاد المهملة وهو : صبغ أحمر .
(٢) رواه البخارى ومسلم (٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩
(٤) رواه البخارى .

حرية العمل :

وللإنسان أن يمارس أى نشاط ، وأن يعمل فى أى مجال وأن يتصرف أى تصرف ، وأن يضرب فى الأرض ، ويمشى فى مناكبها ، ما دام ذلك كله فى دائرة ما أحل الله .

يقول الله تعالى :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ * »(١) .

ويقول سبحانه :

« قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * »(٢) .

ويقول : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * »(٣) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[على كل مسلم صدقة ، قالوا : فإن لم يجد ؟ قال : يعمل بيديه فيتصدق وينفع نفسه .. الخ] .

---

(١) سورة الحج آية ٤٦ . (٢) سورة العنكبوت آية ٢٠ .
(٣) سوره الملك آية ١٥ .

وليس من حق أى إنسان أن يقيد حرية فرد من الأفراد، إلا إذا كان فى هذا التقييد مصلحة حقيقية ، كما كان يفعل عمر ، رضى الله عنه ، فقد روى أنه كان يعس بالليل ، فسمع امرأة تقول :

ألا من سبيل إلى خمـــر فأشربَهـا

أم هـل من سبيل إلى نصر بن حجاج

فقال عمر رضى الله عنه : أما فى عهد عمر فلا ؟

فلما أصبح استدعى نصر بن حجاج ، فوجده من أجمل فتيان أهل المدينة ، فأمر بحلق شعره ، فبدا أجمل مما كان ، فنفاه عمر ، رضى الله عنه ، إلى الشام ، وأخرجه من المدينة ، دون جريمة اقترفها ، ولـكن فعل ذلك رعاية للمصلحة ، وإبعاداً للريبة ، وتجنباً لافتتان النساء به . وفى هذا قيل :

جنى الجمال على نصر فغربه .

العَدالة ...

المحافظة على الحقوق :

يحرص الإسلام أشد الحرص ، على المحافظة على حقوق الناس ، ودمائهم ، وأعراضهم ، وأموالهم .

كما يعنى أشد العناية بصيانة حرياتهم ، وكراماتهم ، ويتخذ لذلك جميع الوسائل التى تحفظ هذه الحقوق ، وتصونها جميعاً .

ومن هذه الوسائل إقامة الحق ، والعدل بين الناس ؛ ذلك أن إقامة الحق ، والعدل هى التى تشيع الطمأنينة ، وتنشر الأمن ، وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وتقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتنمى الثروة ، وتزيد فى الرخاء ، وتدعم الأوضاع ، فلا تتعرض لخلخلة ، أو اضطراب ، ويمضى كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته فى العمل ، والإنتاج ، وخدمة البلاد ، دون أن يقف فى طريقه ما يعطل نشاطه ، أو يعوقه عن النهوض .

الدعوة إلى العدل :

وقد جاءت الآيات والأحاديث داعية إلى العدل ، ومحذرة من الظلم ، ومحرمة له .

والله سبحانه من أسمائه العدل . وما أنزل كتبه ، ولا أرسل رسله ؛ ولا كلف الناس بالشرائع ، إلا لأجل إقامة الحق والعدل .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ . وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ

وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * »(١) .

وبالعدل قامت السموات والأرض .

« وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * »(٢) .

وإقامة العدل إحدى وظائف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، التى كلف بها .

« وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ . اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ . لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ . اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * »(٣) .

والله سبحانه لا يظلم الناس شيئاً ، بل لا يريد الظلم .

« وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * »(٤) .

وفى الحديث القدسى :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا »

وما هلكت الأمم السابقة إلا بظلمها وبغيها .

« وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا »(٥) .

« فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »(٦) .

وفى الحديث :

[اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة] .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥
(٢) سورة الرحمن آيات ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الشورى آية ١٥ .
(٤) سورة غافر آية ٣١ .
(٥) سورة يونس آية ١٣ .
(٦) سورة النمل آية ٥٢ .

ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويقول : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين ، كما ثبت ذلك عن الرسول .

والظالمون مهما رأوا أن العقوبة لا تعجل لهم ، فليسوا بمأمن من مكر الله .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ »(١) .

« وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * »(٢) .

« يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * »(٣) .

مجالات العدل :

وللعدل مجالات متعددة . نذكرها فيما يلى :

العدل فى الحكم :

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ »(٤) .

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة الفرقان آية ٢٧ .
(٣) سورة غافر آية ٥٢ .
(٤) سورة النساء آية ٥٨ .

ويقول :

« يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ . فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ . وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * »(١) .

وإذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى داود ، عليه السلام ، فهو فى الواقع موجه إلى ولاة الأمور فى هذه الأمة ، لأن الله لم يذكر لنا ذلك إلا ليبين لنا المثل الأعلى فى الحكم ، وأن داود ، وهو نبى معصوم ، يخاطبه الله بقوله :

« وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » .

فإذا كان النبى وهو معصوم يخشى عليه من اتباع الهوى ، والوقوع فى الضلال ، فأولى بأن يخشى على غيره ، من غير المعصومين .

والعدل فى الحكم يمكن للحاكم ، ويبقى عليه ، فإذا تحول عن العدل إلى الظلم والجور ، فقد أذن الله بذهابه ، وزوال ملكه .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن هذا الأمر فى قريش ، ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا أقسموا أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والناس أجمعين] .

ويتحقق العدل فى الحكم ، بإيصال كل حق إلى مستحقه ، والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام ، وبتجنب الهوى بالقسمة بين الناس بالسوية :

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ »(٢) .

---

(١) سورة ص آية ٢٦ . (٢) سورة المائدة آية ٤٩ .

والمثل الأعلى للحاكم ، ماجاء فى وصف الحسن البصرى له ، وهو يبعث برسالته إلى أمير المؤمنين ، عمر بن عبد العزيز . قال :

إعلم يا أمير المؤمنين : أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مواقع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحنى على ولده ، يسعى لهم ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة البرة ، الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين . يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والإمام العادل ياأمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ، ويسمعهم ، وينظر إلى الله ، ويريهم ، وينقاد إلى الله ، ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله ، كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم ياأمير المؤمنين ،أن الله أنزل الحدود ؛ ليزجر بها عن الخبائث والفواحش . فكيف إذا أتاها من يليها ؟ إن الله جعل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر يا أمير المؤمنين ،الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ، ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه رقادك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك

« يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ »(١) .

واذكر يا أمير المؤمنين :

« إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ »(٢) .

فالأسرار ظاهرة ، والكتاب

« لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا »(٣) .

فالآن يا أمير المؤمنين ، وأنت فى مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل .

لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا(٤) ولا ذمة ؛ فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات بإذهاب طيباتك فى آخرتك .

لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن أنظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور

---

(١) سورة عبس آية ٣٤ — ٣٦ (٢) سورة العاديات آية ٩ ، ١٠ .
(٣) سورة الكهف آية ٤٩ (٤) إلا : أى عهداً .

فى جبائل [١] الموت ، وموقوف بين يدى الله ، فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد

« عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ » [٢] .

إنى يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى [٣] من قبلى، فلم آلك [٤] شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى عليك ، كمداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له فى ذلك من العافية والصحة . . . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وفى مجال التطبيق :

حدث أن أحد أعيان الفرس ، وكان ذمياً ، وكانت له ضيعة ، تلاصق ملكا لأمير، كان والياً لعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فرأى هذا الأمير ، أن يغتصب من هذا الدهقان ضيعته ، فشكا إليه ذلك ، فزجره ، وأهانه ، فأشارت عليه زوجه أن يستعدى [٥] عليه عمر ، ففعل ، وارتحل إلى المدينة ، وسأل عن بيت عمر ، وأرشد إليه ، فإذا عمر جالس على عباءة ممزقة ، فشكا إليه الدهقان ما لقيه من عامله ، فطلب عمر صحيفة ، وكتب فيها بعض الشىء ، وأراد خيطاً ليلفها به ، فلم يقدر عليه ، فمزق قطعة من عباءته ، ولف بها الصحيفة ، وناولها الرجل ، فأخذها ، وارتحل إلى بلده ، وأبدى أسفه إلى زوجه ؛ لأنه ذهب إلى رجل لا يقدر على خيط يشد به صحيفته ! فكيف يستطيع أن يلزم الأمير أمره ؟ فقالت زوجته : وما عليك ! احمل الصحيفة إليه ، فحملها ، فلما فضها الأمير ، وقرأها ، تصبب عرقاً ، وقال للدهقان : ماذا فعلت ؟ خذ الضيعة . . وهنا يحدث الدهقان ، فيقول : قرأت الصحيفة ، فإذا فيها: « أنصف فلاناً الدهقان من نفسك وإلا فأقبل والسلام » .

---

(١) جبائل : أى شباك . (٢) عنت : أى خضعت . (٣) أولو النهى : أى العقل .
(٤) ألو : أقصر . (٥) يستعدى : يستعين .

وقد حكى كذلك أن جبلة بن الأيهم ، أمير من أمراء الغساسنة ، كان يطوف بالبيت ، فوطىء إزاره ، شاب من فزاره ، فلطمه الأمير ، فجدع أنفه ، فذهب الفزارى إلى عمر ، رضى الله عنه ، وشكا الأمير إليه ، فقال عمر له : القصاص ، أو يعفو عنك . فقال : وكيف وأنا أمير وهو سوقه ؟ فقال عمر : لقد سوى بينكما الإسلام ، فلا تفضله إلا بالتقوى والعافية ! !

فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابى ، فلم يرض إلا بأن يلطم الأمير كما لطمه ، وعلم أن عمر لا محالة سيمكن الأعرابى من القصاص . ففر إلى الروم ، وارتد عن الإسلام ، ثم ندم بعد ذلك ، وأنشد :

تنصرت الأشراف من عار لطمة
وما كان لى فيها — لو صبرت لها — ضرر
تكنفنى فيها لجاج ونخوة
وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى
رجعت إلى القول الذى قال لى عمر
ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة
وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة
أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

وأبلغ من ذلك كله ، ما روى فى الصحيح أن أسامة بن زيد ، شفع فى حد من الحدود ، فقال : الرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، له :

[أتشفع فى حد من حدود الله إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا

إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه ، وإذا سرق الشريف تركوه . . والذى نفسى بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطع محمد يدها] .

العدل فى القضاء

قال الرازى : قال الشافعى رضى الله عنه :

ينبغى للقاضى أن يسوى بين الخصمين فى خمسة أشياء :

١ — فى الدخول عليه .

٢ — والجلوس بين يديه .

٣ — والإقبال عليهما .

٤ — والاستماع لهما .

٥ — والحكم عليهما .

قال : والمأخوذ عليه التسوية بينهما فى الأفعال دون القلب ، فإن كان يميل قلبه إلى أحدهما ، ويحب أن يغلب بحجته على الآخر ، فلا شىء عليه ؛ لأنه لا يمكنه التحرز عنه .

قال : ولا ينبغى أن يلقن واحداً منهما حجته ، ولا شاهداً شهادته ؛ لأن ذلك يضر بأحد الخصمين ، ولا يلقن المدعى الدعوى والاستحلاف ، ولا يلقن المدعى عليه الإنكار والإقرار ، ولا يلقن الشهود أن يشهدوا ، أو لا يشهدوا .

ولا ينبغى أن يضيف أحد الخصمين دون الآخر ، لأن ذلك يكسر قلب الآخر ، ولا يجيب هو إلى ضيافة أحدهما ، ولا إلى ضيافتهما ما داما متخاصمين .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يضيف الخصم إلا وخصمه معه .

وتمام الكلام فيه مذكور فى كتب الفقه . وحاصل الأمر فيه : أن يكون

مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه ، وألا يمتزج ذلك بغرض آخر .
وذلك هو المراد بقوله تعالى :

« وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ »[١] .

ونورد فيما يلى :

رسالة عمر بن الخطاب فى القضاء :

وهى رسالة بعث بها ، رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : وهى التى جمع فيها جمل الأحكام ، واختصرها بأجود كلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد محق عنها معدلا ، ولا ظالم عن حدودها محيصا . قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين

إلى عبد الله بن قيس :

سلام عليك . أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ؛ فافهم إذا أدلى إليك ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاد له .

آس[٢] بين الناس فى وجهك ، وعدلك ؛ ومجلسك ؛ حتى لا يطمع شريف فى حيفك[٣] ؛ ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادعى ؛ واليمين على من أنكر ؛ والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا .

---

(١) سورة النساء آية ٥٨ ــ انتهى من المنار .
(٢) آسى بين الناس : سو بينهم .
(٣) حيفك : أى ميلك معه لشرفه .

لا يمنعك قضاءٌ قضيته اليوم ؛ فراجعتَ فيه عقلك ؛ وهديتَ فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق ؛ فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.

الفهمَ الفهم ، فيما تلجلج(١) فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة ؛ ثم اعرف الأشباه والأمثال ؛ فقس الأمور عند ذلك ؛ واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ؛ واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، أمداً ينتهى إليه ؛ فإن أحضر بينة أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ؛ فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ؛ أو مجرباً عليه شهادة زور ؛ أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ؛ فإن الله تولى منكم السرائر ؛ ودرأ(٢) بالبينات والأيمان .

وإياك والقلق والضجر(٣) ؛ والتأذى بالخصوم ؛ والتنكر عند الخصومات ؛ فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ؛ ويحسن به الذخر .

فمن صحت نيته ؛ وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ؛ ومن تخلق(٤) للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله . . فما ظنك بثواب غير الله عز وجل ، فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسلام .

وجوب العدل بين الزوجات :

أباح الله تعدد الزوجات ، وقصره على أربع ، وأوجب العدل بينهن ، فى الطعام والسكن . والكسوة . والمبيت . وسائر ما هو مادى . من غير تفرقة بين غنية . وفقيرة . وعظيمة . وحقيرة .

---

(١) تلجلج : تردد (٢) درأ : دفع والظنين : المتهم .
(٣) القلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر .
(٤) تخلق للناس : أظهر لهم فى خلقه خلاف نيته .

فإن خاف الرجل الجور وعدم الوفاء بحقوقهن جميعاً — حرم عليه الجمع بينهن .

فإن قدر على الوفاء بحق ثلاث منهن ، دون الرابعة ، حرم عليه العقد عليها .

فإن قدر على الوفاء بحق اثنين ، دون الثالثة ، حرم عليه العقد عليها .

وكذلك من خاف الجور بزواج الثانية ، حرمت عليه ؛ لقول الله تعالى :

« فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا »[1] .

أى أقرب ألا تجوروا .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال :

[من كانت له امرأتان ؛ فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل[2]] .

ولا تعارض بين ما أوجبه الله من العدل فى هذه الآية ، وبين ما نفاه الله فى الآية الأخرى ، من سورة النساء ، وهى :

« وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ »[3] .

فإن العدل المطلوب ، هو العدل الظاهر المقدور عليه ، وليس هو العدل فى المودة والمحبة ؛ فإن ذلك لا يستطيعه أحد ، بل العدل المنفى هو العدل فى المحبة ، والمودة ، والمباشرة الجنسية ، فإن ذلك لا يملكه أحد ، وقد ينشط للواحدة مالا ينشط

---

(١) سورة النساء آية ٣ . (٢) رواه أبو داود وغيره .
(٣) سورة النساء آية ١٢٩ .

للأخرى ، وقد كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يقسم بين نسائه، فيعدل ، ويقول :
[اللهم هذا قَسمى فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك . ولا أملك] .

العدل بين الأولاد :

وقد أوجب الإسلام العدل بين الأولاد ، ونهى عن التفضيل بينهم فى الملك والهبة ؛ لأن تفضيل بعضهم على البعض الآخر يفضى إلى العقوق ، ويفسد ذات البين ، ويقطع الصلات التى أمر الله بها أن توصل .

فعن النعمان بن بشير : أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى نحلت(١) ابنى هذا غلاماً كان لى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

[أكلَّ ولدك نحلت مثل هذا ؟ فقال : لا . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : فأرجعه (٢)]

وفى رواية مسلم أنه قال : [اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم] .

وفى رواية أخرى له : [فلا تشهدونى إذاً فإنى لا أشهد على جور(٣)] .

وهذا المنع إذا لم يكن هناك عذر يبيح التفضيل ، فإن كان ثمة عذر يبيحه — فإنه لا مانع منه .

فإذا فضل الأب ذا الحاجة على الغنى ؛ وذا العاهة على السليم ؛ أو الطائع على العاصى ؛ أو البار على العاق — فإن ذلك جائز شرعاً .

العدل فى القول والشهادة والكتابة :

والعدل واجب فى القول والكتابة ، بمعنى أن يقول ؛ ويكتب الإنسان الحق ؛ ولا يعدل عن الصدق إلى غيره :

---

(١) نحلت : أى أعطيت. (٢) فارجعه : أى رده ولا تعطه هذا الغلام. رواه البخارى ومسلم.
(٣) جور : أى ظلم

« وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا . وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى »(١) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ »(٢) .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ . شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ . إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا . فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا . وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا . فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً »(٣) .

« وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ »(٤) .

العدل بين المتخاصمين :

وإذا وقع بين طوائف المسلمين خصام أدى إلى القتال — وجب على طائفة محايدة من المسلمين أن تتدخل لحسم هذا النزاع ؛ والقضاء على هـذه الخصومة ، بالصلح بينهما ، على أن يقوم هذا الصلح على أساس من الحق والعدل .

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »(٥) .

(١) سورة الأنعام آية ١٥٢ .
(٢) سوره البقرة آية ٢٨٢
(٣) سورة النساء آية ١٣٥ .
(٤) سورة الطلاق آية ٢
(٥) سورة الحجرات آية ٩ .

العدل مع الأعداء :

والعدل يجب أن يكون بين الناس جميعاً ، من غير تفرقة بين قوى وضعيف ؛ ولا بين أبيض وأسود ؛ ولا بين عربى وعجمى ؛ ولا بين مسلم وغير مسلم ؛ ولا بين حاكم ومحكوم .

فالعدالة لاتفرق بين الألوان ؛ ولا الأديان ؛ ولا تعترف بالفوارق والفواصل بين الناس :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »(١) .

أى ولا يحملن بغضكم لقوم أن تتركوا العدل معهم ؛ وتظلموهم بسبب بغضكم لهم ؛ بل يجب أن تكونوا عادلين فى كل المواطن حتى مع أعدائكم .

وفى هذا يقول الخليفة الأول ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه :

« القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ؛ والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له » .

وحدث أيضاً أن على بن أبى طالب رضى الله عنه تخاصم فى مجلس عمر رضى الله عنه ؛ مع رجل يهودى . فقال عمر : اجلس يا أبا الحسن ؛ فرأى عمر فى وجه على الغضب . فقال : أكرهت أن يخاصمك رجل يهودى ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين . ولكنى كرهت تفضيلك لى على خصمى بأن كنيتنى .

(١) سورة المائدة آية ٨ .

العمل

دعوة الإسلام إلى العمل :

من طبيعة الإسلام الحركة والنشاط ؛ لأن الحركة حياة وقوة ؛ والسكون ضعف ، وموت .

والإسلام يحب لأهله أن يحيوا كأقوى ما تكون الحياة ؛ وأن يناضلوا كأشد ما يكون النضال ؛ وأن يكون لهم فى كل ميدان جهاد ؛ وفى كل مجال عمل ؛ حتى تتحقق لهم السيادة ، والقيادة ، عن جدارة ، واستحقاق .

وأسلوب الإسلام فى الدعوة إلى العمل — أسلوب متميز ، لا يكاد يضاهيه ؛ أو يقاربه ، أى أسلوب آخر .

فغاية الحياة فى نظر الإسلام — هى إحسان العمل ، واتقانه ؛ وإظهار المواهب ، وإبراز القوى الكامنة فى النفس الإنسانية .

« تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ »(١) .

« إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً * »(٢)

---

(١) سورة الملك آية ١ ، ٢ .
(٢) سورة الكهف آية ٧ ، ٨ .

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * »(١) .

وما لم يحقق الإنسان هذه الغاية — فهو فى خسر ؛ ونقص ، يعرضه للضلال والشقاء .

« وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * »(٢) .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * »(٣) .

وقد تحجب النفس عن الغاية التى خلقت من أجلها ؛ فتنصرف عنها ، متعلقة بالأمانى الخادعة ؛ والآمال الكذاب . فأصدر الإسلام حكمه الحاسم ؛ ليبذذ هذه الأمانى ، والآمال ، وأنه إسلام الوجه لله ؛ وإحسان العمل :

« لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِىِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً * وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »(٤) .

(١) سورة هود آية ٧ (٢) سورة العصر .
(٣) سورة التين آيات ٤ ، ٥ ، ٦ (٤) سورة النساء آيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

وفى الحديث : [ليس الإيمان بالتمنى ؛ ولكن ما وقر فى القلب ؛ وصدقه العمل . وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ؛ ولا حسنة لهم ؛ وقالوا : نحن نحسن الظن بالله . وكذبوا ؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل] .

والتعلل بالأمانى دليل الحمق والطيش .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[الكيس من دان نفسه ؛ وعمل لما بعد الموت ؛ والأحمق من أتبع نفسه هواها ؛ وتمنى على الله الأمانى] .

ويقول :

[إعملى يا فاطمة : فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً] .

والإسلام يلون الخطاب فى الدعوة إلى العمل ؛ ليستفرغ الإنسان طاقته وأقصى جهده فيه .

« وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(١) .

وليس شىء أبلغ فى الدعوة إليه من هذا ؛ فالله هو الآمر به ، وهو الذى سيراه هو ورسوله ، والمؤمنون ، وهو المحاسب عليه فى مستقبل الزمان .

وأى جهد يبذل ، فهو مذخور عند الله لا يضيع منه شىء .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

(١) سورة التوبة آية ٩٤ .

وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ * »(١)

وعدالة الله تقضى أن يكون الجزاء حسب الجهد المبذول :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ * »(٢) .

ومنزلة الإنسان عند الله بقدر ما يقدم من عمل .

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * »(٣) .

[إعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً] .

« وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإنْ كانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِها وكَفَى بِنا حاسِبِينَ * »(٤)

« وأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إلاَّ ما سَعَى * وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزاءَ الأَوْفَى * »(٥) .

وليس للجنة سبيل سوى العمل .

« وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * »(٦) .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ ، ١٢١ . (٢) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨ .
(٣) سورة الأحقاف آية ١٩ (٤) سورة الأنبياء آية ٤٧ .
(٥) سورة النجم آيات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ (٦) سوره الأعراف آية ٤٣ .

ومهما قصر الإنسان فى العمل حتى حضرته الوفاة ، فلن تنفعه توبة . .

« وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ »[(١)].

« يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا . لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا * »[(٢)].

وما أكثر ما يتحدث الإسلام عن العمل ؛ وعن الحوافز الدافعة إليه ؛ والحاملة عليه . . ولو لم يكن من الوحى ، فى هذا المعنى إلا هذه الآية ، لكفى :

« وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا »[(٣)].

العمل الذى يريده الإسلام :

ولكن ماهو العمل الذى يحبب فيه الاسلام ، ويدعو إليه ؟

إنه العمل الصالح الذى تزكو به النفس ؛ وتقوم به الأخلاق ؛ وتتسع به دائرة البر ، وتقوى به العلاقات الإنسانية ؛ وتصان به الأديان ، والأبدان ، والأعراض ، والأموال ، والقلوب ، والعقول .

(١) سورة النساء آية ١٨ .
(٢) سورة الأنعام ١٥٨ .
(٣) سورة النور آية ٥٥ .

العمل الذى ينمى الإنتاج ، ويزيد الثروة ؛ ويحفظ كرامات الأفراد ؛ ويصل بالأمة إلى غايتها من السيادة ، والجادة .

استجابة السلف وإعراض الخلف :

وقد استطاع الإسلام ، بهذه التعاليم البناءة ، أن يبنى أمة تعبد الله ، وتفعل الخير ؛ وتجاهد فى سبيل المثل العليا ؛ وتعمل للدين كما تعمل للدنيا .

وقد بلغت فى ذلك شأواً لم يسبقها إليه سابق ؛ ولم يلحقها فيه لاحق ؛ واستحقت بذلك شهادة الله لها بالتفوق ، كما أظفرها بتسجيل رضاه عنها .

« لَـٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * »[1] .

« وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ »[2] .

« مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * »[3] .

ثم جاء بعد هذا السلف الصالح ، من أعرض عن هذا الأصل ؛ وغفل عن هذه النصوص الكثيرة ؛ وتعسف فى تأويلها ؛ وحرفها عن مواضعها ؛ وعرضها للجدل

---

(١) سورة التوبة آية ٨٨ .　(٢) سورة التوبة آية ١٠٠ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٢٣ .

العقيم ؛ والمناقشات التى لا طائل تحتها ، وزعم أن العمل ليس شطراً . وإنما هو شرط . . وشرط كمال فحسب ؛ وفتح بهذه التأويلات باب القعود عن النهوض حتى أصيب العقل بالتبلد ؛ والفكر بالجمود ؛ والحياة بالتوقف ؛ وأصبح كل شىء ساكناً لا يتحرك ، وإذا تحرك فهى حركة سلبية ؛ ونشاط لا يبلغ غاية ، ولا يصل إلى هدف كبير .

وأثمر هذا التوقف ضعف التدين ، وفساد الخلق ، واحتلال البلاد ، وضياع الثروة ، وغابة الجهالة ، وكان أن قام من ينادى بأن التدين من أسباب التخلف ، وأن الشريعة عامل من عوامل التأخر ، وأنه لابد من عزل الدين عن الحياة .

والواقع أن هذا جهل بالدين ، وغفلة عن تعاليمه .

فإن الاسلام قد نهض بهذه الأمة ، وأوصلها إلى كمالها المادى والادبى ، ولم تتوقف عن سيرها الأمامى ؛ وخطواتها التقدمية إلا يوم أن انحرفت عنها ؛ ولم تأخذ منه إلا بالمظهر دون الجوهر ؛ وبالشكل دون التعمق .

إننا نكرر أن العمل هو الدعامة التى يقوم عليها بناء الاسلام ؛ وعليها تشاد حضارته ؛ وأنه لا إسلام للفرد ولا للجماعة إذا تجرد عنه العمل .

الطيبات من الرزق

كثرة النعم :

ما أكثر النعم التي ينعم بها الناس ؛ وما أوسع المتع ، واللذائذ التي يتمتعون بها ، ويتلذذون .

فمن نعمة النساء ؛ إلى نعمة البنين ؛ إلى نعمة الثروة ؛ إلى نعمة الجاه ؛ إلى نعمة السيطرة ؛ إلى غير ذلك من متاع ظاهر ؛ وشهوات مادية تملأ الحياة ؛ وترى فى كل جانب من جوانبها .

وقد ذكر الله بعض هذه النعم وعدّدها ؛ فمن ذلك قوله :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »(1) .

ومنه قوله :

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا »(2) .

---

(1) سورة آل عمران آية ١٤ (2) سورة الحديد آية ٢٠ .

موقف الناس منها :

وللناس بإزاء هذا المتاع مواقف مختلفة :

١ — فمنهم من يرى أنهـا الغاية ، فيحبها ، ويؤثرها ، ويتعلق بها ، كما يتعلق الطفل بثدى أمه .

وهذا شأن الـكافرين بالله ، وبالآخرة ، وبحكمة الله فى الخلق ، والحياة ، وهؤلاء لاحظ لهم من فضل الله ، ولا مثوبته فى الآخرة .

وفيهم يقول الله سبحانه :

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا . وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * »(١) .

وقوله تعالى :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * »(٢) .

وقوله تعالى :

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا . فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ »(٣) .

(١) سورة هود آية ١٥ ، ١٦ . (٢) سورة محمد آية ١٢ .
(٣) سورة الأحقاف آية ٢٠ .

وإنما كان إيثارها محظوراً ، لأن حبها والتعلق بها يفسد الخلق ، ويضعف الإرادة ، ويخلق الفوضى ، ويجعل السيطرة للهوى ، وحين يسيطر الهوى تذهب كل القيم الصالحة ، وتضيع جميع الحرمات التى اصطلح الناس على احترامها .

٢ — وعلى العكس من هذا الفريق فريق يرفضها ، ويزهد فيها لما فيها من آلام ومتاعب ، ولما يكتنفها من مشاق وتبعات .

وهذا شأن المتصوفة ، والزهاد ، والرهبان ، والفلاسفة ، والعباد ، وقد حذر الإسلام من هذا السلوك الانعزالى ، فعتب على الرهبنة المبتدعة التى مارسها الرهبان ، أو اخترعوها من تلقاء أنفسهم ، دون أن يؤمروا بها ، أو يدعوا إليها ، فقال تعالى :

« وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا »(١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

[لارهبانية فى الإسلام] .

وقال :

[رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله] .

وحظر أشد الحظر الامتناع عن الطيبات من الرزق ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * »(٢) .

وقد منع الإسلام رفض الدنيا ، لأن ذلك يعطل نشاط الحياة ، ويوقف سيرها ، ويصيبها بالشلل ، ويجعل قيادها فى يد من لا يحسن القيام عليها ، من ذوى الأخلاق الفاسدة ، والنفوس النجسة ، وإذا انتقلت قيادة الحياة إلى هؤلاء كانت الفتنة فى الأرض ، والفساد الكبير .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٧ (٢) سورة المائدة آية ٨٧ .

٣ — وثمة فريق وسط ، لا ينغمس فى المتاع المادى انغماساً يلهيه عن واجباته الروحية ، ولا يزهد فيه زهداً ينسيه ضرورات الجسم وحاجاته ، بل يجمع بين مطالب الجسد ومطالب الروح ، وهذه هى وجهة الإسلام :

« يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * »(١) .

وعلمنا الإسلام أن نهتف من أعماق نفوسنا ، وأن ندعو الله بأحب ما يدعى به .

« رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * »(٢) .

« رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا »(٣) .

وفى الحديث : [إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده]

وفيه : [أحسنوا ثيابكم ، وأحسنوا رحالكم ، حتى تكونوا فى الناس كأنكم شامة] .

---

(١) سورة الأعراف آية ٣١ ، ٣٢ . (٢) سورة البقرة آية ٢٠١

(٣) سورة الفرقان آية ٧٤ .

وهذه الوجهة هى التى تتفق ونظام الفطرة ، وتتلاءم مع طبيعة الإنسان ، وتساير منطق الإسلام كدين عام خالد . .

أما اتفاقها مع فطرة الإنسان :

فالله لم يخلق الإنسان ، ويخلق فيه الميول ، والعواطف ، والغرائز ، لكبتها بالزهد وإخمادها بالرياضة الشاقة ، التى تضعف الجسم ، والعقل معاً ؛ فإن العقل السليم فى الجسم السليم .

وضعف الجسم يعرضه للأمراض ، والأسقام ، والعلل ، ويحول بينه وبين النهوض بتبعاته ، وأداء واجباته الشخصية ، والدينية ، والاجتماعية .

وضعف العقل يفقد الإنسان حسن التصرف ، ويمنعه من إدراك الحقائق إدراكا صحيحاً ، فتصدر أحكامه فيها مشوبة بالخطأ ومجافية للصواب .

وسلامة الجسم لا تتوفر إلا بتوفير كل ضروراته واحتياجاته .

وأما مناسبتها لطبيعة الإسلام ، فالله يريد للاسلام أن يعم نوره الآفاق ، وأن تنتشر أحكامه ، ومبادئه ، وتعاليمه ، فى أرجاء الدنيا ، ولا يتم ذلك إلا إذا كانت لأصحابه ، القوة والمنعة ، قوة العلم ، وقوة المال ، وقوة التنظيم ، وقوة التشريع ، وقوة التجنيد ، وقوة السلاح .

وهذه القوى لا بد وأن تكون فى يد الجهاز الإسلامى كضرورة من ضرورات الاستخلاف فى الأرض ، والتمكين للدين .

التوجيهات الرشيدة :

وإذا كان الاسلام ينظر إلى الدنيا هذه النظرة ، ويضعها وضعها الصحيح ، فإنه يوصى بوصايا يجعلها موضع الاعتبار وهى :

١ — أن الدنيا طريق إلى الآخرة ، وهى طور من الأطوار ، ولا سبيل

إلى البقاء فيها ، وعلى الإنسان أن يذكر رسالته التى خلق من أجلها ، ويجعلها نصب عينيه ، وهى عبادة الله ، والفرار إليه :

« فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * »(١) .

٢ — وأن الآخرة أبقى وأفضل ، وهى لذلك أولى بالإيثار :

« بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * »(٢) .

« وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »(٣) .

٣ — وعلى الانسان أن يقوى إرادته ، ويتقيد بقيود الحلال والحرام ، ويخضع شهوته لحكم الشرع ، وسلطان العقل :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * »(٤) .

دور المسلمين :

وإذا كانت اليهودية أفرطت فى الجانب المادى ، والمسيحية أفرطت فى الجانب المقابل .

فإن الإسلام هو الوسط : الجامع بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

والمسلمون هم الأمة الوسط ، المنتدبون من قبل الله ، لحمل هذه الرسالة الاسلامية التى تصل بالانسان إلى منتهى كماله المادى والروحى معاً .

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا * »(٥) .

(١) سورة الذاريات آية ٥٠ .
(٢) سورة الأعلى آية ١٦ و ١٧ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٤
(٤) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١
(٥) سورة البقرة آية ١٤٣ .

التشريع ..

الفقه الاسلامى ، يتمثل فى الكتاب الكريم ، والسنة الصحيحة ، والاجتهاد العقلى المتطور ، والمتجدد مع الأحداث الطارئة ، والقضايا المتجددة .

روى الامام أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والترمذى : أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن :

بم تحكم ؟

قال : بكتاب الله .

قال : فإن لم تجد ؟

قال : بسنة رسول الله !

قال : فإن لم تجد ؟

قال : أجتهد رأيى . لا ألو : أى لا أقصر .

فضرب فى صدره ، وقال :

[الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ، لما يرضى رسول الله] .

وفاؤه :

وهذا التشريع فيه الوفاء بحاجات هذه الأمة ، من حيث النظام العبادى ، والنظام الفردى ، والنظام الخلقى ، والنظام الاجتماعى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام الجهادى ، والنظام السياسى . وفيه كل ما تحتاج إليه الأمة ، فى تدبير شئونها الداخلية والخارجية .

وبانتظام هذا التشريع هذه الجوانب جميعها — كان مغنياً عن غيره ، وكان غيره غير مغن عنه .

يقول الله سبحانه وتعالى :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ . وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * »(١) .

« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * »(٢) .

غايته :

من أهداف التشريع الإسلامي :

١ — إعداد الفرد بدنياً ، وعقلياً ، وخلقياً ، بواسطة التربية ، والتعليم . .

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * »(٣) .

٢ — تحقيق مصالح الناس بإقامة العدل بينهم .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ »(٤) .

---

(١) سورة النحل آية ٨٩ (٢) سورة العنكبوت آية ٥١ .

(٣) سورة الجمعة آية ٢ (٤) سورة الحديد آية ٢٥ .

٣ — وهو بكلياته العامة يستهدف المحافظة على الدين، والمحافظة على النفس، والمحافظة على العقل، والمحافظة على النسل، والمحافظة على المال.

والمحافظة على هذه الأمور الخمسة، فيها الحفاظ على المصالح الفردية، والمصالح الاجتماعية العامة، التى هى قوام الأمة . . .

إذ أن المحافظة على الدين : تعصم من الانزلاق الخلقى، وتحفظ من الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، وتوجه نحو المكارم والمثل العليا . . .

والمحافظة على النفس : إنما هى محافظة على الحياة نفسها، وعلى كل حق من حقوقها؛ حتى تنطلق الملكات إلى أهدافها، دون أن يقف فى طريقها معوق . . .

والمحافظة على العقل : بتجنب كل ما من شأنه أن يؤثر فيه، أو يضعفه . .

والمحافظة على النسل : يقصد بها خلق جيل، قوى الجسم، والعقل، والدين، والخلق . . .

والمحافظة على المال : تكون بكسبه بالطرق التى شرعها الله؛ واستثماره؛ وتنميته؛ ووضعه فى اليد الأمينة؛ ومنع الاعتداء عليه . .

وبدهى أن المحافظة على هذه الكليات يناسب الفطر؛ ويساير العقول؛ ويجارى التطور؛ ويصلح لكل زمان ومكان.

شهادة علماء الغرب :

ولقد قال أحد أساتذة الفلسفة من علماء الغرب :

«إن فى نظام الاسلام كل استعداد داخلى للنمو؛ لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة.

والصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الإسلامى؛ وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامها. وإنى أشعر بأنى على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض» . .

يسره :

وهذا التشريع مع وفائه بكل مقومات الحياة ؛ فهو سهل سمح ليس فيه ما يشق على الناس فهمه ، أو يصعب عليهم العمل به .

« يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » (١) .

« وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » (٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

[بعثت بالحنيفية السمحة] . . .

وقال :

[إن الدين يسر . ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه] .

مرونته :

وهو مرن يتسع لكل ما فيه مصلحة وعدل . . . فحيثما توجد المصالح فثم شرع الله . . .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ » الآية السابقة .

الفقه مظهر للعقيدة :

وهو امتداد للعقيدة ، ومظهر من مظاهرها ؛ وهذا يكفل له الحماية الذاتية ؛ كما يضمن احترامه ، وطاعته ؛ والثقة به ؛ مما يقتضى بقاءه ؛ واستقراره ؛ واستقرار التشريع يوفر الكثير من الجهد ، والوقت ، والتحرر من التبعية .

والأخذ بالتشريع الاسلامى يحررنا من أبشع استعمار ؛ وهو التحرر من القوانين الأجنبية التي منيت بها البلاد — وبذلك نستكمل شخصيتنا ؛ ويعود إلينا كياننا وافراً غير منقوص .

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ (٢) سورة الحج آية ٧٨ .

دفع اعتراض :

ولا يقال: إن الأخذ بالفقه الاسلامى ، يعود بنا إلى الوراء ؛ لأنه كما قلنا : نام ؛ ومتجدد ؛ وهو يساير أرقى المدنيات . . .

كما لا يرد على الأخذ به ، وجود مواطنين لا يدينون بالإسلام ؛ لأن هؤلاء سيجدون من رعايته ؛ وتحت ظلاله ، أفضل مما يجدونه فى ظل القوانين الأجنبية ؛ وقاعدة الاسلام العامة : « أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

وقد امتدت رقعة الدولة الاسلامية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ؛ وكانت تضم أمماً مختلفة الأجناس ؛ متباينة الأديان ؛ متناقضة العادات ؛ والتقاليد ؛ والمصالح ، وكان فيها العرب ، والفرس ، والروم ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وغير هؤلاء .

وقد دبرت الدولة شئون هؤلاء الأمم والشعوب ، بقوانين من شريعتها ، وما احتاجوا إلى الاستعانة بقوانين من غيرهم ، ولم يجد هؤلاء أى عنت — مع تطاول القرون والأزمان ، حتى قال العلامة « غوستاف لوبون » : « لم يعرف العالم فاتحاً أرحم ولا أعدل من العرب » .

ولا نطيل القول فى التدليل على ضرورة الأخذ بالتشريع الإسلامى ، ولا فى التدليل على هذه القضية ، بعد أن قرر المؤتمر الدولى المنعقد فى لاهاى سنة ١٩٣٢ للقانون المقارن ؛ أن الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون الدولى المقارن .

ومن هذا الحين أصبحت مصادر هذا القانون أربعة :

١ — القوانين الانجليزية .

٢ — القوانين الالمانية .

٣ — القوانين الفرنسية .

٤ — الشريعة الإسلامية .

إن أخذنا بالتشريع الاسلامى لمن الأهمية بمكان ، وإنه ليعبر تعبيراً صادقاً عما يجيش فى صدور الملايين من الأمة الاسلامية .

إن الله أكمل لنا شريعتنا ، وجعلها نوراً وهدى ، فمن الغى والضلال أن نعرض عن نور الله ، ونعمى عن هديته .

لقد جاء أحد اليهود إلى عمر ، رضى الله عنه ، فقال له : لقد نزلت عليكم معشر المسلمين آية ، لو نزلت علينا معشر اليهود ، لاتخذنا يوم نزولها عيداً ، فقال له عمر : وما هى ؟

فقال :

« اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً » (١) .

فقال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذي نزلت فيه . والساعة التى نزلت فيها ! لقد نزلت على رسول الله يوم الجمعة ، عشية عرفة ، وهو عيد للمسلمين كل عام .

(١) سورة المائدة آية ٣ .

الرّوابط الأدبيّة

جاء الإسلام ؛ ليجمع القلب إلى القلب ، ويضم الصف إلى الصف ، مستهدفاً إقامة كيان موحد ، ومتقياً عوامل الفرقة والضعف ، وأسباب الفشل والهزيمة ؛ ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية ، والمقاصد النبيلة ، والأهداف الصالحة ، التي جاءت بها رسالته العظمى : من عبادة الله ، وإعلاء كلمته ، وإقامة الحق ، وفعل الخير ، والجهاد من أجل استقرار المبادىء التي يعيش الناس فى ظلها آمنين . .

فهو لهذا كله يكوّن روابط وصلات بين أفراد المجتمع ؛ لتخلق هذا الكيان ، وتدعمه ، وهذه الروابط يمكن تلخيصها فيما يلى :

الاخاء وحقوقه :

فالإسلام يربط المسلمين جميعاً برباط هو أوثق الروابط ، وهو رباط الأخوّة التى تزول أمامها جميع الفوارق ، من نسب عريق ، ومال وفير ، وجاه عريض ، إلى غير ذلك مما درج الناس على اعتباره من المميزات بين الناس .

فأى إنسان مهما كان عريق النسب ، أو كثير المال ، أو كان له شأن فى بيئته ، فهو أخ لمن دونه نسباً ، وشقيق لمن هو أقل منه مالا ، وأحط شأناً فى المنزلة الاجتماعية . .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(١) .

وهذا الاخاء يقتضى تبعات وحقوقاً ، فليس هو إخاء عقيما لا ثمرة له

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠

في الواقع ، ولا أثر له في الحياة العملية ، فهو يقتضي أن يهتم كل أخ بأمر أخيه ، وأن يعنى بشأنه ، والدفاع عنه ، والذياد عن حياضه ، والعمل الدائب على ترقية حاضره ، وإعداده لمستقبل أعز وأكرم .

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »(١)

روى البخاري ومسلم ، عن النعمان بن بشير أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

[مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى] .

ومن مظاهر هذا الاهتمام ، ألا يدع المسلم أخاه للأحداث تتحكم فيه ، وتنال منه ، بل عليه أن يبذل له من ذات نفسه ، وذات يده ، وأن يدفع عنه كل أذى يصيبه ، أو شر يقع عليه . . .

روى أصحاب السنن ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم قال :
[المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره — بحسب امرىء من الشر ، أن يحقر أخاه المسلم . . كل المسلم على المسلم حرام — دمه ، وماله ، وعرضه] .

ومن حق المسلم على المسلم أن يحفظ عرضه ، ويصون حرمته ، في حضوره أو غيبته ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

روى أبو داود أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

[ما من امرىء يخذل امرأً مسلماً ، في موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته . .

---

(١) سورة التوبة آية ٧١ .

[وما من امرىء ينصر مسلماً ، فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته — إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته] .

الاحترام والمحافظة على الكرامة :

والإسلام يوجب على المسلمين أن يحترم بعضهم بعضاً ، ويحافظ كل فرد على كرامة أخيه ، ومشاعره ، وسمعته ، فلا يحل لفرد أن يستهزىء بفرد أو يعيبه ، أو يحط من قدره ، أو يضع من مكانته ، أو يطعن فى شخصه ، أو يلقبه بلقب يكرهه ، أو يضيق به ، أو يتجسس عليه ، أو يسىء الظن به ، أو يغتابه . . .

لأن هـذه السيئات تقطع الصلات ، وتمزق روابط المودة ، وتزرع البغضاء فى القلوب ، وتنشر العداوة فى الناس .

قال الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »(١)

(١) سورة الحجرات آية ١١ ، ١٢

الوفاء والأمانة :

والإسلام يوجب الوفاء وأداء الأمانة ، فالمؤمن لا يخلف الوعد ، ولا يخون الأمانة .

فإن الخلف يضر كثيراً ، ويضيع أوقات الناس سدى ، ويذهب بشخصية صاحبه ، ويفقد الثقة به : فلا يصدق فى حديث ، ولا يطمأن له فى عهد ، أو أمانة .

والخيانة شر ما يصاب به الإنسان ، فإنها تسلب الإيمان والدين معاً ففى الحديث :

[لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له] .

ويقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »(١) .

ويقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(٢) .

ويقول :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا »(٣) .

وفى الحديث الصحيح ، يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم :

[آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان] .

---

(١) المائدة آية ١ .
(٢) الأنفال آية ٢٧
(٣) النساء آية ٥٨ .

خفض الجناح :

والتواضع ، وخفض الجناح ، ولين الجانب ، كل ذلك له مكانته فى المجتمع الإسلامى ، فهذا المجتمع لا يتكبر فيه فرد ، ولا يختال ، ولا يزهو بنفسه ؛ فإن الكبر ، والخيلاء ، والعجب ، تغرس الفرقة ، والعداوة ، فضلا عن أنها تحول بين المتكبر ، وبين إصلاح نفسه ؛ لتعاميه عن عيوبه ، ونقائصه ، واعتقاده الكمال فى نفسه ، ورضاه عنها .

يقول الله تعالى :

« وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً »[١] .

ويقول :

« سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً »[٢] .

ويقول :

« أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ »[٣] .

ويقول :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ »[٤] .

---

(١) الاسراء آية ٣٧ (٢) الأعراف آية ١٤٦ .
(٣) الزمر آية ٦٠ (٤) الحجر آية ٨٨ .

وفى الحديث الصحيح :

[إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد] .

الإيثار :

والإيثار ، وإنكار الذات ، من شأنه أن يوطد العلاقة بين الأفراد ، ويجعلهم إخواناً متعاطفين ، وخلانا متناصرين ، وقد مدح الله سبحانه الأنصار ، وأثنى عليهم ، لاتصافهم بهذه الفضيلة ، فقال :

« وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »(١) .

التعاون :

والإسلام يهتم بالتعاون ، والاتحاد ، حتى تقوى الجماعة ، وتنهض بمسئولياتها . . فالبحر من قطرة ، والجبل من ذرة ، ويد الله مع الجماعة .

يقول الله تعالى :

« وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ »(٢) .

سلامة الصدر :

وما اجتمعت القلوب ، ولا ائتلفت إلا بسلامة الصدر ، وطهارته من الحقد والحسد — يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الحشر آية ٩ (٢) المائدة آية ٢ .

[إن بدلاء أمتى ، لم يدخلوا الجنة بكثرة الصلاة ، ولا الصوم ، وإنما دخلوها بسخاوة الأنفس ، وسلامة الصدور ، ورحمة الله] .

ويوصى صلوات الله وسلامه عليه ، أنساً ، فيقول :

[يا بنى: إذا أصبحت ، وأمسيت ، وليس فى قلبك غش لأحد فافعل ؛ فإن ذلك من سنتى ، ومن أحيا سنتى ، فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة] .

ضبط النفس :

والحلم ، وضبط النفس يمنع الصلات من التعرض للقطيعة ، وهو دليل اكتمال العقل ، وصفة أهل التقوى :

« وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »[1] .

وفى الحديث الصحيح :

[ليس الشديد بالصُّرَعة[2] ، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب] .

التسامى :

ومنها التنزه عن اللغو ، والثرثرة ، والهزل ، والباطل من القول ، والفعل . والاهتمام بالعمل الجاد المفيد ؛ سواء أكان عملا للدين ، أم للدنيا ، مما يوجه الطاقات إلى البناء والتكتل ، ويصرفها عن التمزيق والتفريق . . وقد أثنى الله على المؤمنين المعرضين عن اللغو ، فقال :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤ .

(٢) الصرعة : الذى يصرع الناس ويطرحهم على الأرض .

« وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ »(١) .

وفى الحديث الصحيح :

[من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه] .

وطلب الإسلام من الإنسان ، العمل الجاد للدين والدنيا معاً . .

« وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ . وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا . وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »(٢) .

ويقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم :

[طلب الحلال فريضة على كل مسلم] .

التطهير :

ويبقى بعد ذلك عملية التطهير . . أى تطهير المجتمع من عوامل الشر والفساد . وتطهير الحياة من النفاق ، وأسباب الفتن ، فلا يقبل لفاسق ولا لغيره ممن ليسوا موضع الثقة قول حتى يتبين صحته :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ . فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ »(٣)

---

(١) القصص آية ٥٥ .
(٢) القصص ٧٧ .
(٣) الحجرات آية ٦ .

وإتقاء الفتنة ، بمطاردة مثيرها ، أمر لابد منه :

« وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ »(١) .

وإيذاء المؤمنين ، وإشاعة قالة السوء بينهم ، لابد من وضع العقاب الصارم له :

« وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا »(٢) .

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... »(٣) .

وجهاد الكفر والنفاق من الضروريات :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »(٤) .

الوحدة وجريمة التفريق :

والإسلام بطبيعته يجعل من المسلمين كتلة واحدة ، ويخلق بينهم تضامناً ، فهو يجمعهم على عقيدة واحدة ، وعبادة واحدة ، وشريعة واحدة ، وقبلة واحدة وغاية واحدة .

وأى صدع فى هذه الوحدة ، وأى هزة فى هذا الكيان ، يعتبر جريمة ما بعدها جريمة .

إن الفرقة هى القاضية على الدين والدنيا معاً :

(١) الأنفال آية ٢٥
(٢) الأحزاب آية ٥٨
(٣) النور آية ١٩ .
(٤) سورة التحريم آية ٩

« وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ »[(١)].

وذهاب الريح : هو ذهاب القوة القاضية بالضعف والإذلال ، ثم الفناء والزوال .

إن الإسلام أعلن براءته من المفرقين :

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ »[(٢)].

« وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ »[(٣)].

إصلاح ذات البين :

وعلى المسلمين أن يسارعوا إلى إصلاح ذات البين ، وتقوية الروابط ، إذا تعرضت لوهن ، أو ضعف .

ولا تقل أهمية هذه المسارعة ، عن أهمية المسارعة ، إلى الصلاة وغيرها من العبادات .

فعن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ إصلاح ذات البين ؛ فإن فساد ذات البين هي الحالقة] .

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

[ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟ :

[تصلح بين الناس إذا تباغضوا وتفاسدوا] .

والكلمة الطيبة التي تجمع الشتات ، وتوحد الكلمة ، وترأب الصدع — من الخير الذي يتقرب به إلى الله :

---

(١) الأنفال آية ٤٦ (٢) الأنعام آية ١٥٩ .

(٣) الروم آية ٣٢ .

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (١) .

ولم يرخص الإسلام فى الكذب إلا فى مثل هذه الظروف ؛ تأليفاً للقلوب ، وتوحيداً للصفوف .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ، فينمى خيراً ، أو يقول خيراً] .

وروى أبو داود عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : ما سمعت رسول الله يرخص فى شىء من الكذب ، إلا فى ثلاث : كان يقول :

[لا أعده كاذباً : الرجل يصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح والرجل يقول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها] .

والإصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمر حتم ، ولو لم يتم ذلك إلا بالعنف محافظة على الكيان العام للجماعة ، وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء . يقول الله تعالى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ . فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » (٢) .

---

(١) سورة النساء آية ١١٤

(٢) سورة الحجرات آية ٩

عاقبة إهمال هذه التعاليم :

هذه هى الأسس التى حرص الاسلام على أن يقيم علاقة الجماعة المسلمة عليها ؛ ليجعل من المسلمين أمة قوية يحسب حسابها ، ويرهب جانبها ، ويوم أن كان المسلمون ينفذون هذه التعاليم ، ويقيمون علاقتهم على هذه القواعد كانت رابطتهم أقوى من أن تحل ، ووحدتهم أعصى من أن ينال منها عدو .

فلما فقدوا هذا الإحساس ، وخمد فيهم هذا الروح ، بدأ الضعف يدب فى صفوفهم ، وأخذت الفرقة تعمل عملها فيهم مما نجم عنه أن أصبحت بلادهم نهباً للاستعمار ، ومناطق نفوذ لمن لا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة .

وكان أن انقسم الوطن العربى ، والعالم الإسلامى ، أشلاء ممزقة ، وأجزاء موزعة وبدلا من أن تكون الأخوة والوحدة ، هما الرباط القوى بين هذه الشعوب الكثيرة العدد ، الواسعة الرقعة ، الغنية بما وهبها الله من ثروات — فشت فيهم هذه الأقليمية المحدودة المفرقة ، وما هى إلا نعرة من نعرات الجاهلية ؛ ودعوة من دعوات العصبية التى حاربها الاسلام .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية]

ولئن كان ذلك جائزاً بين الأمم الكافرة ، التى لا تجد من الروابط الأدبية ما يجمع شتاتها ، غير هذه الروابط المادية ؛ فما يجوز ذلك بين شعوب تظللها كلمة التوحيد ، ويقول كتابها :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[1] .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠

ويقول نبيها :

[وكونوا عباد الله إخواناً].

ويصدع بهذه الكلمة الفذة :

[من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم].

ولقد أدرك قادة الإصلاح هذه المبادىء ، وعرفوا آثارها فى الحاضر والمستقبل ، فرأوا أن عليهم واجباً ؛ وأن لهم رسالة ؛ وأنهم مسئولون عن إيجاد كيان موحد ؛ يقف كالطود فى وجه الأعداء ؛ ويصد غارات المعتدين والغرباء ؛ فدعوا إلى الوحدة وإلى التكتل والتجمع ، وإلى النضال المشترك ضد الصهيونية والاستعمار ، وما هذه الدعوة إلا إحياء لهذه الحكمة النبوية :

[المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً].

والغاية التى استهدفها الإسلام من أجل إقامة هذا الكيان ، هى ما ذكره الله فى قوله من سورة الحج :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ »

« وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

« وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ

« هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ »(١).

---

(١) سورة الحج آية ٧٧ ، ٧٨ .

الحكم . . .

الدولة جزء من الإسلام :

الإسلام دين ، ودولة ، وعبادة ، وقيادة ، ومصحف ، وسيف .

ومن ثم ، فإن الحكم والسياسة ، جزء من تعاليم الإسلام .

وإقامة الحكومة فريضة على المسلمين . . إن هم أهملوها ، أو قصروا فيها أثموا بالإهمال ، أو التقصير .

يقول الله تعالى :

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ »(1) .

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ »(2) .

« إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ »(3) .

ويقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم :

[من مات ، وليس فى عنقه بيعة لإمام ، فقد مات ميتة جاهلية] .

[عليك المسلمين وإمامهم] بجماع

---

(1) سورة المائدة آية ٤٩

(2) سورة النساء آية ١٠٥

(3) سورة يوسف آية ٦٧

وقد كان هذا الأمر معلوماً من الدين بالضرورة، على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان صلوات الله وسلامه عليه، حاكماً زمنياً، بجانب كونه رسولاً نبياً.

ومبادرة الصحابة إلى عقد البيعة لواحد منهم، بعد أن لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالرفيق الأعلى، وتقديمهم هذا الأمر على دفن الرسول، صلى الله عليه وسلم، إنما يدل على وجوب نصب الحكومة، وأنه لا يحل تأخير ذلك.

وللإسلام بعد ذلك كله نظم وقوانين، لا قيام لها إلا في ظل دولة تحميها، وحكومة ترعاها وتسهر عليها.

ولهذا جاء في تعريف الإمامة

أنها عبارة عن « حراسة دين الله، وسياسة دنيا الناس ».

شكل الحكومة :

والحكم في الإسلام قائم على الشورى.

يقول الله سبحانه :

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » (١).

ويقول :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » (٢).

---

(١) سورة الشورى آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.

ففى الآية الأولى ، تقرير أن أمر المسلمين بينهم يقوم على الشورى ، وأنه لا يستبد به واحد منهم .

وفى الآية الثانية ، أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بمشاورة المسلمين مع كمال عقله ، فيما يعرض من قضايا ، لم ينزل بها وحى ، فهى شورى مدنية وسياسية ، وليست شورى دينية .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير فى كل أمر لم يؤمر به .

وقد ترك أمر اختيار الحاكم لهذه القاعدة العامة من تشاور المسلمين فى اختيار من تثق به الأمة فى تدبير شئونها ، وحراسة دينها ، وسياسة دنياها .

والشورى هى لب الديمقراطية وأصلها .

مصدر السلطات :

وإن أكمل سلطة ، هى ما استندت إلى إرادة الأمة — كما قرر علماء القانون — ولهذا فإن الإسلام أعطى الأمة ، ممثلة فى أهل الحل والعقد ، من الرؤساء والعلماء والقادة ، وأهل الرأى ، حق اختيار الحكام ، كما أعطاهم حق عزلهم — جريا على القاعدة القائلة « بأن من ملك المسئولية ليستقيم الأمر ، يملك العزل عند اعوجاجه » .

وليس ثمة طريقة معينة وضعها الإسلام للشورى ، ولا لاختيار الحاكم ، لأن هذا الأمر مما يختلف باختلاف الزمان والمكان ، ويتطور حسب الظروف والأحوال .

ولقد اختير أبو بكر ، رضى الله عنه ، يوم السقيفة بعد مفاوضة ومشاورة وجدل ومناقشة بين المهاجرين والأنصار .

روى الإمام البخارى فى صحيحه ، قال :

[اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة(١) فى سقيفة بنى ساعدة .

فقالوا(٢) : منا أمير ، ومنكم أمير .

فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح . فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر .

وكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك إلا أنى قد هيأت كلاما قد أعجبنى . خشيت ألا يبلغه أبو بكر رضى الله عنه .

فتكلم أبو بكر رضى الله عنه ، فتكلم أبلغ الناس . فقال فى كلامه :

« (٣) نحن الأمراء وأنتم الوزراء » .

فقال الحباب بن المنذر : لا والله لا نفعل !

« منا أمير ومنكم أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه »

« لا : ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء »

هم(٤) أوسط العرب دارا ، وأعربهم أنسابا ، فبايعوا عمر ، أو أبا عبيدة .

فقال عمر رضى الله عنه : بل نبايعك أنت .

فأنت سيدنا . وخيرنا . وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس .

وعهد أبو بكر ، رضى الله عنه بالخلافة ، لعمر بعد أن استشار كبار الصحابة فيمن يخلفه ، فكلهم أشاروا عليه بعمر ، رضى الله عنه .

وقال أبو بكر رضى الله عنه : « إنى وليت عليكم خيركم فى نفسى ، فإن يرشد

(١) سعد بن عبادة : كان سيد الخزرج .
(٢) فقالوا : أى الأنصار
(٣) نحن الأمراء : أى المهاجرون .
(٤) هم : أى المهاجرين من قريش .

وعدل ، فذلك علمى به ، ورأيى فيه ، وإن جار وفجر ، فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت .

« وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ »[1] .

أما عمر ، رضى الله عنه ، فقد جعلها شورى فى ستة من أصحابه ، رضى الله عنهم .

ومن هذا يعلم ، أنه ليست هناك طريقة معينة فى اختيار الحاكم ، وإنما مرد ذلك إلى الأمة ، ولها أن تختار من الوسائل ما يتفق مع ظروفها وأحوالها ، بعد أن تتوفر الشورى كشرط أساسى .

شروط الحاكم :

وجملة ما اشترطه الإسلام فى الحاكم — العلم ، والكفاية ، ليكون ملماً بشئون الأمة ، وقادرا على الاضطلاع بتبعات الحكم .

والحاكم ما هو إلا فرد من أفراد الأمة . لا يمتاز على غيره بشىء ، ولا يستأثر بشىء ، ولا يحاكم بقانون خاص لا يحاكم به غيره ، ولا هو فوق القانون ، وإنما هو موظف لدى الأمة ، يجرى عليه ما يجرى على غيره ، تبقيه الأمة إذا شاءت ، وتعزله إذا أرادت .

يقول عمر رضى الله عنه :

« إنما أمير المؤمنين رجل منكم ، ولكنه أثقلكم حملا » .

وكانت هذه الروح — الروح الديمقراطية — هى الروح السائدة فى المجتمع الإسلامى ، حتى فى أشد أيام حكم الفرد .

اختصم المأمون — الخليفة العباسى — مع رجل ، بين يدى يحيى بن أكثم القاضى ، ودخل المأمون إلى مجلس يحيى ، وخلفه خادم يحمل طنفسة لجلوس الخليفة ، فرفض

(١) سورة هود آية ٨٨ .

يحيى ذلك ، وقال للمأمون : يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه ، فاستحيا المأمون ، ودعا للرجل بطنفسة مثله .

فهذا القاضى الذى هو عامل الخليفة ، والذى بيده عزله ، لم يمنعه ذلك من أن يلفت نظر المأمون إلى روح الديمقراطية أمام القانون.

وظيفة الحكومة :

إن الحكم أمانة ، فقد روى مسلم، عن أبى ذر رضى الله عنه قال :

قلت : يا رسول الله . ألا تستعملنى ؟ فضرب بيده على منكبى ، ثم قال :

[يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها] .

وأمانة الحكم تقتضى إسناد المناصب العامة إلى الأمناء الأقوياء والأكفاء المخلصين :

فإذا قدم من يستحق التأخير ، أو أخر من يستحق التقديم ، كان ذلك إيذاناً بحرب من الله .

فعن يزيد بن سفيان ، قال :

قال لى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، حين بعثنى إلى الشام :

يا يزيد إن لك قرابة ، عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك ؟ بعد ما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

[من ولى من أمر المسلمين شيئاً ،فأمر عليهم أحداً محاباة ، فعليه لعنة الله ؛ لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا ، حتى يدخله جهنم] (١) .

(١) لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا : أى لا يقبل الله منه فرضاً ولا نفلا ، رواه الحاكم : وقال: صحيح الإسناد ،

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم :

[من استعمل رجلا على عصابة من المسلمين، وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله، ورسوله، والمؤمنين] [1] .

وأموال الدولة أمانة فى يد الحاكم، والواجب عليه أن يضعها فى مواضعها، وأن ينفقها فيما ينفع الجماعة والفرد، ويعود عليهم بالرفاهية والإسعاد.

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبرة من بعير، ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم :

[لا يحل لى من مالكم هذا، ولا هذه الوبرة]

وجميع الحقوق المشروعة للمحكومين أمانة فى عنق الحاكم، وأنه مسئول عن حمايتها وتمكينهم منها .

ففى حديث الإمام البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالامام راع ومسئول عن رعيته] .

وقال رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه :

[ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجات، والخلة[2] والمسكنة، إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته، وحاجته، مسكنته] .

وروى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال :

[ما من أمتى أحد، ولى من أمر المسلمين شيئا، لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه، إلا لم يجد رائحة الجنة] .

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

(٢) الخلة : الفقر — رواه الحاكم وقال: صحيح الاسناد

وروى مسلم : أن عمر ، رضى الله عنه كتب إلى عتبة بن فرقد :

[إنه ليس بكدك ، ولا كد أبيك ، ولا كد أمك فأشبع المسلمين فى رحالهم مما تشبع به فى رحلك ، وإياكم والتنعم ، وزى أهل الشرك ، ولبوس الحرير].

والحاكم مسئول عن الأمن واستتبابه ، والمحافظة عليه ، حتى يأمن كل فرد على نفسه ، ودينه ، وعرضه ، وماله ، وحريته ، وكرامته .

ومن وظيفة الحاكم الأساسية ، إقامة العدالة ، والتسوية بين الناس فى الحقوق حتى يأخذ كل ذى حق حقه ؛ وتنفيذ الشريعة ، وإقامة حدود الله .

قال عمر رضى الله عنه لأبى مريم السلولى (١) :

« والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم »

قال : « أفيمنعنى ذلك حقاً »

قال عمر رضى الله عنه : « لا »

قال : « فلا ضير ، إنما يأسى على الحب النساء » .

والحاكم مطالب بإقامة الاعمال النافعة ، والسعى فى المصالح العامة والمشروعات التى تنهض بالأمة ، سواء كانت مادية أم أدبية ، فتنشيط التجارة والصناعة ، والزراعة ، وتنظيم اقتصادها ، وسائر ما يوفر للأمة الرفاهية والرخاء بما هو واجب عليه .

وكذلك العمل على تثقيف عقول الأفراد ، وتعليم الأمة ، وتربيتها بدنياً ، وعقلياً وخلقياً ، من الواجبات الضرورية .

ومن أهم وظائف الحكومة : توحيد الكلمة ، وجمع الشمل ؛ وتوحيد

(١) أبو مريم السلولى هذا . هو الذى قتل زيد بن الخطاب أخا عمر رضى الله عنه .

كيان الأمة — كى تستطيع مواجهة الأحـداث، ورد عدوان المعتدين؛ ومنع إغارات المغيرين .

وإن الدولة فى الاسلام ؛ ليست كغيرها من الدول ؛ فهى صاحبة رسالة ؛ ولهـا هدف ؛ ومن أهدافها الدعوة إلى الاسلام ، ونشر تعاليمه العقائدية والعبادية ؛ ومثله الأخلاقية والأدبية ؛ وقيمه الاجتماعية والانسانية .

وواجب الدولة ينحصر فى :

(ا) بذل المـال وإنفاقه فى نشر هـذه الدعوة وإعلانها ، حتى يدوى صوتها فى العـالمين .

(ب) وضع خطة منظمة للدعوة ، واتخاذ الأساليب التى تضمن لها النجاح والتمـكين فى الأرض .

إن وظيفة الدولة فى الأسلام وظيفة خطيرة ، بل هى أخطر الوظائف على الإطلاق . وأنها كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إنها أمانة ؛ وأنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها .

ألم يقل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وهو يقدر مسئوليته : « والله لو عثرت بغلة بالعراق لخشيت أن يسألنى الله عنها ، لم لم أسو لها الطريق ؟ » .

وإن النهوض بمسئولياتها وتبعاتها ، ليملأ القلوب بالود والحب ، ويلهج الألسنة بالدعاء والثناء ، وإن التقصير فيها ليملأ القلوب بغضاً ويطلق الألسنة باللعن والذم . يقول الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه :

[خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون[1] عليهم ويصلون عليكم ، وشر أئمتكم الذين ، تبغضونهم ، ويبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم] .

(١) تصلون عليهم : تدعون لهم .

قوة الجهاد ..

* السـلام
* العهود والمواثيق
* القتـال

السلام ...

السلام مبدأ إسلامى :

١ — إن دعوة السلام ليست جديدة علينا ، ولا غريبة عنا . وإنما هى دعوة استقرت فى ضمائرنا ، وجرت فى عروقنا مجرى الدم .

إنها مبدأ من المبادىء التى عمق الإسلام جذورها فى نفوسنا ، فأصبحت جزءاً من كياننا ، وعقيدة من عقائدنا .

لقد صاح الإسلام — منذ طلع فجره ، وأشرق نوره — صيحته المدوية فى آفاق الدنيا ، يدعو إلى السلام ، ويضع الخطة الرشيدة ، التى تبلغ بالانسانية إليه .

إن الإسلام يحب الحياة ، ويقدسها ، ويحبب الناس فيها ، وهو لذلك يحررهم من الخوف ، ويرسم الطريقة المثلى ، لتعيش الانسانية متجهة إلى غاياتها ، من الرقى والتقدم ؛ وهى مظللة بظلال الأمن الوارف .

تكرار لفظ السلام ودلالته :

٢ — ولفظ الإسلام — الذى هو عنوان على هذا الدين — مأخوذ من مادة السلام ؛ لأن السلام والإسلام يلتقيان فى توفير الطمأنينة ، والأمن ، والسكينة .

ورب هذا الدين من أسمائه السلام ، لأنه يؤمن الناس بما شرع من مبادىء ، وبما رسم من خطط ومناهج .

وحامل هذه الرسالة هو حامل راية السلام ، لأنه يحمل إلى البشرية الهدى ، والنور ، والخير ، والرشاد . وهو يحدث عن نفسه فيقول :

[إنما أنا رحمة مهداة] .

ويحدث القرآن عن رسالته فيقول :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » (١) .

وتحية المسلمين التى تؤلف القلوب ، وتقوى الصلات ، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان ، هى السلام .

وأولى الناس بالله ، وأقربهم إليه ، من بدأهم بالسلام .

وبذل السلام للعالم ، وإفشاؤه جزء من الإيمان .

وقد جعل الله تحية المسلمين بهذا اللفظ للاشعار بأن دينهم دين السلام ، والأمان ، وأنهم أهل السلم ، ومحبو السلام .

وفى الحديث أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

[إن الله جعل السلام تحية لأمتنا ، وأماناً لأهل ذمتنا] .

وما ينبغى للانسان أن يتكلم مع إنسان قبل أن يبدأه بكلمة السلام . يقول رسول الإسلام :

[السلام قبل الكلام] .

وسبب ذلك : أن السلام أمان ، ولا كلام إلا بعد الأمان .

والمسلم مكلف — وهو يناجى ربه أن يسلم على نبيه ، وعلى نفسه ، وعلى عباد الله الصالحين . فإذا فرغ من مناجاته لله ، وأقبل على الدنيا ، أقبل عليها من جانب السلام ، والرحمة ، والبركة .

وفى ميدان الحرب والقتال . إذا أجرى المقاتل كلمة السلام على لسانه ، وجب الكف عن قتاله ، يقول الله تعالى :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا » (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٧ (٢) سورة النساء آية ٩٤

وتحية الله للمؤمنين تحية سلام .

« تَحِيَّتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » (١) .

وتحية الملائكة للبشر فى الآخرة سلام .

« وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » (٢) .

ومستقر الصالحين دار الأمن ، والسلام .

« وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ » (٣) .

« لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (٤) .

وأهل الجنة لا يسمعون لغوا من القول ، ولا يتحدثون بلغة غير لغة السلام .

« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ، إِلَّا قِيلًا : سَلَامًا ، سَلَامًا » (٥) .

وكثرة تكرار هذا اللفظ — السلام — مع إحاطته بالجو الدينى النفسى ، من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها ، ويوجه الافكار والأنظار إلى هذا المبدأ السامى العظيم .

العلاقات الانسانية :

٣ — والإسلام لا يقف عند حد الإشادة بهذا المبدأ فحسب . وإنما جعل أساس العلاقة بين الأفراد ، وبين الجماعات ، وبين الدول ، علاقات سلام وأمان ،

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٤ .
(٢) سورة الرعد آية ٢٣ ، ٢٤
(٣) سورة يونس آية ٢٥ .
(٤) سورة الأنعام آية ١٢٧
(٥) سوزة الواقعة آية ٢٥ ، ٢٦ .

فنى علاقة المسلمين بعضهم مع بعض ، يقول القرآن الكريم :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »[١] .

ويقول الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — :

[مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر] .

فهذه العلاقة أساسها الإخاء ، والمودة ، والرحمة[٢] .

وعلاقة المسلمين بغيرهم ، علاقة تعارف ، وتعاون ، ويسر ، وعدل .

يقول القرآن الكريم فى التعارف المفضى إلى التعاون :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ »[٣] .

ويقول فى الوصاة بالبر والعدل :

« لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[٤] .

ومن مقتضيات هذه العلاقة : تبادل المصالح ، واطراد المنافع ، وتقوية الصلات الإنسانية ، والأخاء العالمى .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠ .

(٢) يراجع فصل العلاقات الأدبية من هذا الكتاب .

(٣) سورة الحجرات آية ١٣   (٤) سورة الممتحنة آية ٨ .

احترام الإنسان من حيث هو إنسان :

٤ — والإسلام احترم الانسان وكرمه — من حيث هو إنسان — بغض النظر عن دينه ، وجنسه ، ووطنه ، ولغته ، ولونه .

ومن مظاهر هذا التكريم : أن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعا منه .

ووهبه القوى العقلية ، والنفسية ، والروحية ، ليسود هذا الكوكب الأرضي ، ويعمره ، وجعله خليفة عنه في إقامة الحق والعدل .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً »[1] .

وهذا التكريم إنما يتم بالحفاظ على حقوق الانسان جميعها ، فله حق الحياة ، وحق التملك ، وحق الحرية ، وحق الانطلاق إلى الآفاق الواسعة ؛ ليبلغ كماله ، ويحصل على ارتقائه المقدر له ، سواء أكان ماديا ، أم أدبيا .

الحرب ضرورة :

٥ — ومن ثم ، فإن أي تفويت أو تنقيص لحق من حقوق الإنسان ، ليعتبر جريمة من الجرائم وهذا نفسه هو السبب الحقيقي في منع الإسلام للحرب أيا كان نوعها .

لأن الحرب بجانب كونها اعتداء على الحياة — وهي حق مقدس — فهي تدمير لما تصلح به الحياة .

فمنع حرب التوسع ، وبسط النفوذ ، وسيادة القوى . فقال :

---

(١) سورة الإسراء آية : ٧٠ .

« تلكَ الدَّارُ الآخرةَ نجعلُها للَّذينَ لا يريدُونَ علوًّا في الأرضِ ولا فسادًا »[١].

ومنع حرب الانتقام والعدوان . فقال :

ولا يجرمنَّكم شنئانُ قومٍ أن صدُّوكم عن المسجدِ الحرامِ أنْ تعتدُوا . وتعاونُوا على البرِّ والتَّقوى . ولا تعاونُوا على الإثمِ والعدوانِ »[٢].

ومنع حرب التخريب والتدمير — فقال :

« ولا تفسدُوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها »[٣]

وإذا كانت القاعدة هي السلام ، والحرب هي الاستثناء . فلا مسوغ لهذه الحرب — في نظر الاسلام — مهما كانت الظروف إلا في إحدى حالات ثلاث :

الحالة الأولى : حالة الدفاع عن النفس — يقول الله تعالى :

« وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الَّذينَ يقاتلونَكم ، ولا تعتدُوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدينَ »[٤]

الحالة الثانية : حالة الدفاع عن المظلومين — يقول الله تعالى :

« وما لكمْ لا تقاتلونَ في سبيلِ اللهِ والمستضعفينَ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ والولدانِ الَّذينَ يقولونَ ربَّنا أخرجنا منْ هذهِ

---

(١) سورة القصص آية ٨٣ .
(٢) سورة المائدة آية ٢
(٣) سورة الأعراف آية ٥٦
(٤) سورة البقرة آية ١٩٠

الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا . وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا . وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » (١)

الحالة الثالثة : حالة الدفاع عن حرية الأديان — يقول الله تعالى :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ » (٢) .

وبهذا قضى الإسلام على كل لون من ألوان الحرب . سواء أكانت حربا من أجل الدين ، أم من أجل الدنيا .

ومهما كف العدو ، وألقى السلم، بعد نشوب الحرب، فواجب أن تمنع الحرب، ويحرم الاستمرار فيها . يقول الله تعالى :

« فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ . فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا » (٣) .

ويقول :

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » (٤)

وحتى لو كان الكف نوعا من أنواع الخديعة .

« وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ » (٥) .

٦ — لا يقتل إلا من يشترك فى القتال :

وإذا كان الإسلام أباح الحرب كضرورة من الضرورات ، فإنه يجعلها مقدرة

(١) سورة النساء آية ٧٥ .
(٢) سورة الأنفال آية ٣٩
(٣) سورة النساء آية ٩٠ .
(٤) سورة الأنفال آية ٦١
(٥) سورة الأنفال آية ٦٢ .

بقدرها.. فلا يقتل إلا من يقاتل فى المعركة . وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو التعرض له بحال .

وحرم الإسلام كذلك قتل النساء ، والأطفال ، والمرضى ، والشيوخ ، والرهبان ، والعباد ، والأجراء ، وحرم المثلة ؛ بل حرم قتل الحيوان ، وإفساد الزروع والمياه ، وتلويث الآبار وهدم البيوت .

وحرم الإجهاز على الجريح ، وتتبع الفار .

وذلك أن الحرب كعملية جراحية لا يجب أن تتجاوز موضع المرض بمكان .

ومن أبلغ ما قاله الإسلام فى ذلك ، قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم :

[من قتل عصفوراً عبثاً . عج إلى الله يوم القيامة ، يقول : يارب إن فلانا قتلنى عبثاً ، ولم يقتلنى منفعة] .

تعاليم الإسلام تتجه نحو المثالية :

٧ — والاسلام يوجب العدل ، ويحرم الظلم ، وتعاليمه السامية ، وقيمه الرفيعة ، تتجه إلى المودة والرحمة ، والتعاون والإيثار ، والتضحية ، وإنكار الذات وغير ذلك ، مما يرفه الحياة ، ويعطف القلوب ، ويؤاخى بين الانسان وأخيه الانسان .

وهو بعد ذلك كله ، يحترم العقل الانسانى ، ويقدر الفكر البشرى ، ويجعل العقل والفكر وسيلتين من وسائل التفاهم والاقناع .

فهو لا يرغم أحداً على عقيدة معينة ، ولا يكره إنسانا على نظرية خاصة بالكون ، أو الطبيعة ، أو الانسان ، وحتى فى قضايا الدين ، يقرر أنه لا إكراه فيه ، وأن وسيلته هى استعمال العقل والفكر والنظر فيما خلق الله من أشياء .

يقول الله تعالى :

« لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » [1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

ويقول تعالى :

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً . أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ . وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ . قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » (١) .

ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم تكن وظيفته إلا أنه مبلغ عن الله، وداعية إليه .

يقول الله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً » (٢)

والاسلام يرى أن منع الحرب إنما يتم بمنع الظلم ، الممثل فى الاستعمار ، وفى التفرقة العنصرية ، وفى تجنب اعتقاد أن الجنس الأبيض ما خلق إلا ليسود ، وأن غيره ما خلق إلا ليكون مسخراً له ، ودائراً فى فلكه .

وإنما يتم ذلك ويتحقق فى نظره ، بنشر التعاليم الصحيحة ، وتعميق جذورها فى النفس الإنسانية ؛ وتربية النشء على فضائل المحبة ؛ والمودة ؛ والإخاء ؛ والتعاون والتآزر ؛ وتسخير جميع أدوات الاعلام فى هذه السبيل حتى تصل الإنسانية إلى ما تنشده من أمان ، وما تصبو إليه من سلام .

هذه وجهة الإسلام باختصار . ونظرته إلى قضية السلم فى إيجاز .

---

(١) سورة يونس ٩٩ — ١٠١

(٢) سورة الأحزاب آية ٤٥ ، ٤٦ .

وانها لدعوة كريمة ، نادى بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا . وانها لا تزال صالحة لأن تقوم بدورها ، إذا وجدت أذناً واعية ، وقلوباً مفتحة للخير ؛ والحق ؛ والجمال .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ . فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨ ، ٢٠٩

العهود والمواثيق

إن احترام العهود والمواثيق واجب إسلامى ؛ لما له من أثر طيب، ودور كبير فى المحافظة على السلام ، وأهمية كبرى فى فض المشكلات ، وحل المنازعات ، وتسوية العلاقات .

وجاء فى كلام العرب : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو من كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته » .

وهذا حق ، فإن حسن معاملة الناس ، والوفاء لهم ، والصدق معهم دليل كمال المروءة ، ومظهر من مظاهر العدالة ، وذلك يستوجب الأخوة والصداقة .

والله سبحانه يأمر بالوفاء بجميع العهود والالتزامات ، سواء أكانت عهوداً مع الله ، أم مع الناس ، فيقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » (١)

وأى تقصير فى الوفاء بهذا الأمر يعتبر إثماً كبيراً ، يستوجب المقت والغضب .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » (٢) .

وكل ما يقطعه الإنسان على نفسه من عهد ، فهو مسئول عنه ، ومحاسب عليه .

« وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً » (٣)

---

(١) سورة المائدة آية ١

(٢) سورة المنافقون آية ١٠٢

(٣) سورة الإسراء آية ٣٤

وحق العهد مقدم على حق الدين .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ »[1]

والوفاء جزء من الايمان ؛ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[إن حسن العهد من الايمان][2]

وليس للوفاء جزاء إلا الجنة

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »[3]

ولقد كان الوفاء خلق الأنبياء والرسل :

« وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا »[4] .

وكان رسولنا صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى هذا الخلق .

قال عبد الله بن أبى الحمساء :

بايعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ببيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية[5]

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٢ (٢) قال الحاكم إنه صحيح وأقره الذهبي .
(٣) سورة المؤمنون آية ١١ (٤) سورة مريم آية ٥٤ .
(٥) بقيت له منهم بقية : أى بقية من ثمن البيع .

فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ، فنسيت . ثم ذكرت بعد ثلاث . فجئت فإذا هو فى مكانه . فقال صلى الله عليه وسلم : [يا فتى لقد شققت علىّ . أنا ها هنا منذ ثلاث[١] أنتظرك] [٢]

وقد عاهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد الهجرة اليهود عهداً ، أقرهم فيه على دينهم، وأمنهم على أموالهم ،بشرط ألا يعينوا عليه المشركين . فنقضوا العهد ، ثم اعتذروا ، ثم رجعوا ، فنقضوه مرة أخرى ، فأنزل الله عز وجل :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ » [٣] .

وعاهد ثعلبة ربه ،على أن يعطى كل ذى حق حقه إذا وسع الله عليه فى الرزق، وأغناه من فضله . فلما بسط الله له من رزقه ،وأكثر له من المال والثروة . نقض العهد ، وبخل على عباد الله ، فأنزل الله فى حقه :

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ » [٤] .

---

(١) منذ ثلاث — أى ثلاث ليال : أى أنه انتظره هذه المدة وفاءاً بالوعد .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) سورة الأنفال آية ٥٥ ، ٥٦
(٤) سورة التوبة آية ٧٥ — ٧٧ .

ولما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر ، قال :

(إنه خطب إلىّ ابنتى رجل من قريش . وقد كان منىّ إليه شبه الوعد . فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق . أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى .)

وهو يشير بذلك إلى قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

[ثلاث من كن فيه فهو منافق . وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان] (١)

وفى التشنيع على الناقضين للعهود ، يقول الله عز وجل :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ . إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٢)

شروط العهود :

ويشترط فى العهود التى يجب احترامها والوفاء بها ، الشروط الآتية :

١ — ألا تخالف حكما من الأحكام الشرعية المتفق عليها .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه البخارى

(٢) سورة النحل الآية ٩٢ — ٩٣ .

[كل شرط ليس فى كتاب الله(١) فهو باطل ، وإن كان مائة شرط] .

٢ — أن تكون عن رضا واختيار ، فإن الإكراه يسلب الإرادة ، ولا احترام لعقد لم تتوفر فيه حريتها .

٣ — أن تكون بينة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، حتى لا تؤول تأويلا يكون مثاراً للاختلاف عند التطبيق .

نقض العهود:

ولا تنقض العهود إلا فى إحدى الحالات الآتية :

(ا) إذا كانت مؤقتة بوقت ، أو محددة بظرف معين ، وانتهت مدتها أو انتهى ظرفها .

روى أبو داود والترمذى عن عمر بن عبسة ؛ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلن عهداً ، ولا يشدنه ، حتى يمضى أمده أو ينبذ إليهم على سواء]

وفى سورة التوبة يقول القرآن الكريم :

« إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » (٢)

(ب) إذا أخل العدو بالعهد .

---

(١) كتاب الله ، أى حكم الله .
(٢) سورة التوبة آية ٤

« فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »[1]

« وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ . لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »[2] .

(جـ) إذا ظهرت بوادر الغدر ودلائل الخيانة .

« وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ »[3] .

---

(١) سورة التوبة آية ٧ .
(٢) سورة التوبة آية ١٤
(٣) سورة الأنفال آية ٥٨ .

القتال ...

الإسلام يهتم بدعوة العالم الانسانى إلى الدخول فى هدايته ، لينعم بهذه الهداية ويستظل بظلها الظليل .

وإن الأمة الإسلامية هى الأمة المنتدبة من قبل الله لإعلاء دينه ، وتبليغ وحيه ، وهى منتدبة كذلك لتحرير الأمم والشعوب .

وهى بهذا الاعتبار كانت خير الأمم ، وكانت مكانتها من غيرها مكانة الأستاذ من التلاميذ .

وما دام أمرها كذلك فيجب عليها أن تحافظ على كيانها الداخلى ، وتكافح لتأخذ حقها بيدها ، وتجاهد ؛ لتتبوأ مكانتها التى وضعها الله فيها .

وكل تقصير فى ذلك يعتبر من الجرائم الكبرى ، التى يجازى الله عليها بالذل والانحلال ، أو الفناء والزوال .

وقد نهى الإسلام عن الوهن ، والدعوة إلى السلم ، طالما لم تصل الأمة إلى غايتها ولم تحقق هدفها ، واعتبر السلم فى هذه الحالة لا معنى له إلا الجبن ، والرضا بالدون من العيش . وفى هذا يقول الله سبحانه :

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ »[1] .

أى الأعلون عقيدة ، وعبادة ، وخلقاً ، وأدباً ، وعلماً ، وعملا .

---

(١) سورة محمد آية ٣٥ .

إن السلم فى الإسلام لا يكون إلا عن قوة واقتدار .

ولذلك لم يجعله الله مطلقاً بل قيده بشرط أن يكف العدو عن العدوان ، وبشرط ألا يبقى ظلم فى الأرض ، وألا يفتن أحد فى دينه .

فإذا وجد أحد هذه الأسباب ، فقد أذن الله بالقتال .

وهذ القتال هو القتال الذى تسترخص فيه الأنفس، ويضحى فيه بالمهج والأرواح .

إنه لا يوجد دين من الأديان دفع بأهله إلى خوض غمرات الحروب ، وقذف بهم إلى ساحات القتال ، فى سبيل الله والحق ، وفى سبيل المستضعفين ، ومن أجل الحياة الكريمة — غير الاسلام .

ومن استعرض الآيات القرآنية، والسيرة العملية، لرسول الله، صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده ، يرى ذلك واضحاً جلياً ؛ فالله سبحانه ينتدب هذه الأمة إلى بذل أقصى ما فى وسعها ؛ فيقول :

« وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ »(١) .

ويبين أن هذا الجهاد هو الإيمان العملى ، الذى لا يكمل الدين إلا به ، فيقول :

« أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »(٢) .

ويوضح أن هذه سنة الله مع المؤمنين ، وأنه ليس للنصر ولا للجنة سبيل غيره فيقول :

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ (٢) سورة العنكبوت آية ٢ ، ٣ .

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» (١).

ويوجب إعداد العدة ، وأخذ الأهبة ، فيقول :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (٢).

والإعداد يتطور بحسب الظروف والأحوال ، ولفظ القوة يتناول كل وسيلة من شأنها أن تدحر العدو .

وقد جاء فى الحديث الصحيح :

[ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى] .

ومن الإعداد الحيطة ، والتجنيد لكل قادر عليه

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً » (٣).

وأخذ الحذر لا يتم إلا بالإعداد البري ، والبحرى ، والجوى .

ويأمر بالخروج لملاقاة العدو فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره . فيقول :

« انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً » (٤).

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٤ (٢) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٣) سورة النساء آية ٧١ (٤) سورة التوبة آية ٤١ .

والإسلام يعتمد على الروح المعنوية ، أكثر مما يعتمد على القوة المادية ، ولهذا يستثير الهمم والعزائم ، فيقول :

« فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ، وَمَالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » (١)

ويصبر المؤمنين ، بأنهم إن كانوا يألمون فإن عدوهم يألم كذلك ، مع الاختلاف البعيد بين هدف كل منهم ، فيقول :

« وَلاَ تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالاَ يَرْجُونَ » (٢) .

ويقول :

« الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » (٣) .

---

(١) سورة النساء آية ٧٤ ، ٧٥ . (٢) سورة النساء آية ١٠٤ .
(٣) سورة النساء آية ٧٦ .

أى أن المؤمنين لهم هدف سام ، ولهم رسالة يجاهدون من أجلها ، وهى رسالة الحق ، والخير ، وإعلاء كلمة الله .

ويوجب الثبات عند اللقاء ، فيقول :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ، وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ »(١) .

ويرشد إلى القوة المعنوية ، فيقول :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ »(٢) .

ويكشف عن نفسية المؤمنين ، وأن من شأنها الاستماتة فى الدفاع ، فهم بين أمرين لا ثالث لهما : إما قاتلين ، وإما مقتولين ، فيقول :

« إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ »(٣) .

وفى الحالة الأولى لهم النصر ، وفى الثانية لهم الشهادة :

« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ »(٤) .

---

(١) سورة الأنفال آية ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الأنفال آية ٤٥ ، ٤٦ .
(٣) التوبة آية ١١١ .
(٤) سورة التوبة آية ٥٢ .

وإن القتل فى سبيل الله ليس موتاً أبدياً، وإنما هو انتقال إلى ما هو أرقى وأبقى، وإن الفناء فى سبيل الله هو عين البقاء .

« وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَيُضِيعُ اجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » (١) .

والله مع المجاهدين لايتخلى عنهم أبداً :

« إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » (٢) .

ثم هو سبحانه يعدهم على ذلك ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ، فيقول :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

---

(١) سورة آل عمران آيه ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ .

(٢) سورة الأنفال آية ١٢ .

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »[1] .

وبهذا الأسلوب ، ربى القرآن الكريم المسلمين الأوائل ، وأوجد فى نفوسهم الإيمان ، الذى كان فيصلا بين الحق والباطل ، ونهض بهم إلى حيث النصر ، والفتح والتمكين فى الأرض .

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »[2] .

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا »[3] .

---

(١) سورة الصف آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ .
(٢) سورة محمد آية ٧ . (٣) سورة النور من آية ٥٥ .

الخاتمة

من أصدق الكلمات التى قالها شاعر : كلمة إقبال شاعر الإسلام :

[الدين بغير قوة فلسفة محضة] .

أجل !

إن الدين بغير قوة مجرد فكرة مضيئة قلما يعيرها الناس اهتماماً .

إن أجل ما يشغل الناس إنما هو الخبز وتوفير شهوات الجسد .

أما الاهتمام بالإيمان ، والحق ، والمثل والقيم ؛ فما أشد انصرافهم عنها ، بل ما أشد خصومتهم لها .

ومن ثم ، فقد كان من الضرورى أن تكون للدين قوة تحميه ، وللحقائق الإلهية سياج يصونها .

ولولا هذه القوة ، وهذا السياج ، ما بقيت كلمة الله ، ولذهبت معالم هدايته .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا »[1] .

والإسلام لا يتجاهل الواقع ، ويقف أمامه مكتوف اليدين .

وهو لهذا يوجه أنظار أتباعه إلى هذه الحقيقة ، وأنه لا قيام له إلا إذا كان له سند من الحديد ، الذى هو رمز القوة .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

---

(١) سورة الحج آية ٤٠

وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (١) .

ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه أخذ المصحف بيد ، والسيف بيد أخرى ، وقال :

[بعثت بهذا ، وبهذا لأقوّم بهذا ، من عدل عن هذا] .

وَالنَّاسُ إِنْ ظَلَمُوا الْبُرْهَانَ وَاعْتَسَفُوا

فَالْحَرْبُ أَجْدَى عَلَى الدُّنْيَا مِنَ السَّلَمِ

والإسلام مع توجيه أتباعه إلى الأخذ ، بالقوة فإنه قد زودهم بعناصرها حتى يبقى كيانهم مصوناً ، وكى يستطيعوا أن يقوموا برسالتهم الإنسانية التى انتدبهم الله لها .

وما أحوج المسلمين الآن إلى أن يتزودوا بهذه العناصر التى جعلناها محور كتابنا هذا .

ليكونوا جديرين بشرف الوراثة للرسول الكريم ، وأحقاء بالاستخلاف فى الأرض ، وتبليغ كلمة الله ، وهدايته إلى الناس .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .

فهـــــرس

قوة العلم

قوة الاقتصاد

قوة التماسك الاجتماعى

صفحة

هذا الكتاب

* « الدين بغير قوة فلسفة محضة » . . .

* بل إن الدين بغير قوة فكرة مضيئة قلما يعيرها الناس اهتماماً — لأن أجل ما يشغل الناس إنما هو الخبز وتوفير شهوات الجسد . . .

* أما الاهتمام بالإيمان والحق والمثل والقيم فما أشد انصرافهم عنها . . بل ما أشد خصومتهم لها . . .

* فهل كان من الضروري أن تقوم دعوة الإسلام على مبدأ القوة . . . ؟ ؟

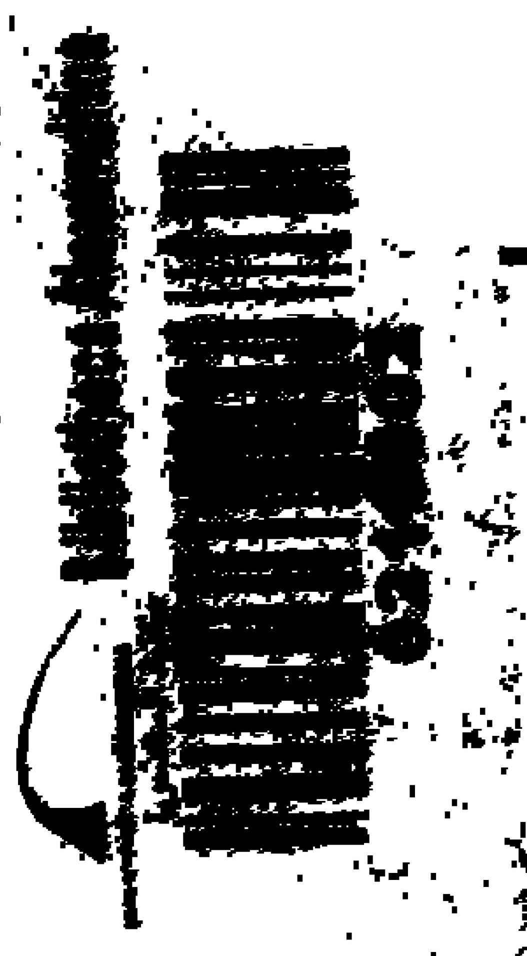
* وإذا كان من الضروري ذلك . . . فما عناصر هذه القوة . . . ؟ ؟

* هذا ما يجيب عنه المؤلف فى توضيح هذه العناصر التى تألفت منها القوة الحقيقية « قوة العقيدة » و « قوة الخلق » و « قوة العلم » و « قوة الاقتصاد » و « قوة التماسك الاجتماعى » و « قوة الجهاد » . . .

* ويسر مكتبة وهبة أن تقدم هذا الكتاب . . .

الذى يعرض عناصر القوة فى الإسلام . فى وقت ترى الأمة الإسلامية نفسها فى أمس الحاجة إلى هذه القوة . . .

مكتبة وهبة



الثمن ٣٠ ص